

القائم والمنصور الفاطميّان

أمام ثورة الخوارج

عارف تامر



دار الآفاق الجديدة


القائم والمنصور
الفاطميان
أمام ثورة الخوارج

تصميم الغلاف :
نجدت قلعجي



تأليف

عارف تامر

دكتور في الآداب

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله:

ولد «القائم بأمر الله» في مدينة «سلمية» السورية سنة ٢٧٩ هـ. وشبَّ وترعرع في ربوع هذه المدينة التي خطّت في تاريخ الفكر اقدم السطور والعبارات، وأعمق ما ينتجه العقل من علوم وعرفان، تجلّى في الموسوعة الفلسفية المعروفة برسائل «أخوان الصفاء وخلّان الوفاء»، وشاهد بل عاصر وهو في مقتبل العمر موت والده الامام «علي المعل» المبكّر، وقيام أحد أعمامه لسلبه رتبة «الإمامة»، وقد فشل وتراجع أخيراً عندما وقف «عبيد الله المهدي» أو «سعيد الخير» الى جانب القائم متخذاً لنفسه صفة الوصاية عليه، والقيام بمهمة الامامة وكالةً إلى حين بلوغه السن التي تؤهله لتسلم مسوؤلياته.

وشهد وهو في مقتبل العمر أيضاً ثورة «القرامطة» التي انبثقت عنيفة صاخبة ضد أسرته «الفاطمية» وضد دعوة آبائه وأجداده تهددها، وتعكر صفو وجودها، ثم تصل أخيراً الى حد اجبار المسؤولين عنها الى الفرار من سلمية الى المغرب.

وشاهد ظلم «العباسيين» وطغيانهم ومطامعهم ومطاردتهم لأبناء عمومته «العلويين» ولكل من ينتسب اليهم، فحمل كرههم وبغضهم، واضمر لهم كل حقد، وحب للثأر والإنتقام.

شارك ابن عمه «عبيد الله المهدي» آلامه وافراحه... فكان رفيقه في حله وترحاله... في ليله ونهاره... وكان بالإضافة الى كل ذلك أمين سره، وابنه الروحي المطيع، وتلميذه الذي يتلقى منه أصول التربية

والعلم والتوجيهات والنصائح، ويدخل في هذا النطاق دروس التمرس على الشؤون السياسية والادارية والقيادة العامة والإضطلاع بشؤون الحكم.

وأخيراً: كان رفيقه في رحلته الشاقة العجيبة من سلمية سورية إلى «سجلماسة» في المغرب... عبر فلسطين ومصر وليبيا وتونس وذلك عندما اضطرّ الى الفرار من سيوف القرامطة ومن العباسيين... تلك الرحلة التي أفاض المؤرخون والأدباء في وصفها، وأفردوا لها الصفحات الطوال في كتبهم مشيدين ببراعة عبيد الله المهدي وحسن تصرفه ورجولته وقوة أعصابه.

وسمع بمصير أسرته، وهو في «الرملة» بفلسطين.. الأسرة البريئة التي ابيدت عن بكرة أبيها بأيدي القرامطة في سلمية وعددها /٨٣/ بين رجل وامرأة وطفل.

وذاق آلام السفر والتعب والعطش والمطاردة، وتعرضه للسلب والقتل والتهديد بالتسليم للاعداء وهو في طريقه الى بلاد المغرب.. مضافاً إلى كل ذلك عذاب «الأسر» والتهديد بالقتل في «سجلماسة» من قبل «اليسع بن مدرار».

هكـذا بـدأت حيـاة القـائم بـأمر اللـه... آلام ومحن... وتشرد وغربة... وأسر وتهديد بالموت... وفقدان الأهل والأحباب... فيا لها من حياة يكتنفها الألم واليأس تطلُّ بوجهها العابس على هذا الفتى الطري العود فيتحملها بصبر وعزيمة ولسان حاله يردد:

«نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا».

لقد كان «عبيد الله المهدي» يولي «القائم بأمر الله» كل عطفه واهتمامه.. كان معجباً بمؤهلاته ومزاياه، فمنذ اللحظة الأولى محضه ثقته، واتخذه ابناً أميناً، وأناط به عند تسلمه زمام الحكم في المغرب

أعظم مسؤولية وهي: القيادة العامة للجيوش الفاطمية، كما عهد اليه فتح الأمصار، وتأديب العصاة والخارجين، واعدَّه اعداداً تاماً للقيام باعباء الخلافة والامامة معاً.

تسلّم القائم بأمر الله شؤون الخلافة سنة ٣٢٢هـ بعد وفاة «عبيد الله المهدي» ونودي به خليفة للمسلمين، وتلقب بأبي القاسم... وتوفي سنة ٣٣٤هـ في مدينة «المهدية» ودفن فيها... إذن فتكون المدة التي عاشها في سلمية - سورية سبعة عشر عاماً، والمدة التي قضاها في ولاية العهد خمسة وعشرين عاماً... أماً مدة بقائه في سدة الخلافة فاثني عشر عاماً... وهكذا يكون مجموع عمره خمسة وخمسين عاماً.

المصادر التاريخية قليلة ونادرة جداً عن حياة القائم بأمر الله الخاصة قبل ذهابه إلى المغرب أي في عهد طفولته ونشأته في سلمية. فهذه المصادر اغفلت ذكر المربين والمدرسين الذين تولوا أمر تربيته وتعليمه، كعادتها اغفال كل شيء عن هذه الأسرة التي تجاوزت باخبارها المؤرخين والرواة، وارتضت لنفسها الحياة - السرية، والتقيَّة العجيبة التي تَفرّع منها انتحال الأسماء والألقاب والصفات للإبتعاد عن عيون العباسيين وملاحقاتهم والنجاة من سيوفهم المسلطة على الرقاب.

غير أن كل هذا لا يمنعنا من القول بأن القائم بأمر الله عاش منذ أن رأى النور في كنف «عبيد الله المهدي» وفي رعايته وتحت اشرافه... فهو الذي احتضنه وربَّاه وزاد عنه وثقّفه ودرّبه واعدّه لرتبة ولاية العهد ثم للامامة فيما بعد باعتباره صاحب الحق فيها والإمام المستقر الأصيل صاحب النص.

ولعمري أن كل هذا يبدو واضحاً وكافياً لاصدار الحكم على هذه الشخصية التي كانت، نموذجاً ومثلاً بارزاً أو قل نوعية فريدة في ذلك العصر البعيد، فلولا أن يلاحظ عبيد الله المهدي عليه ملامح الذكاء والرجولة، والمقدرة والتفوق، ولولا المؤهلات التي كان يتمتع بها لما

وجهه في المهات الصعبة الشاقة عندما كان يضع أسس الدولة الفاطمية، فهذه التولية لا بد للقائم بها أن يكون على مستوى رفيع من المعرفة والدراية وبعد النظر والخبرة العامة بشؤون ادارة الأقاليم، وتنظيم الجيوش، ورسم الخطط الحربية، ومداراة الناس وتحقيق رغبات الأهلين والشعوب والقبائل، وانصاف المظلومين والضعفاء.

أجل... لولا وثوق عبيد الله المهدي من كل هذا لما عهد اليه بالمهات الكبرى، والمنصب القيادي الأول.

ذكرت بعض المصادر التاريخية:

أن القائم بأمر الله تزوَّج بعد عشرة سنوات من وصوله إلى المغرب من فتاة تنحدر من أسرة «آل عمَّار» الكتاميين، وهذه الأسرة كما تؤكد المصادر لعبت دوراً بارزاً على مسرح الأحداث في المغرب، فكانت درع الفاطميين، والدعائم الأساسية لدولتهم، ويكفي ان يكون من أفرادها القائد الكبير «جعفر بن فلاح» وأولاده... وهذا القائد الكبير فتح فلسطين والشام وشارك جوهر الصقلي بفتحه لمصر بعهد الخليفة الرابع المعز لدين الله الفاطمي.. ومن هذه الأسرة ايضاً طلع «الحسين ابن عمَّار» الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً بعهد الحاكم بأمر الله، ومنها «آل عمَّار» قضاة طرابلس - الشام الذين جاءوا إليها لنشر العلم والأدب، ويعود الفضل إليهم بتأسيس المكتبة الفاطمية الكبرى التي اتلفها الصليبيون وعبثوا بمحتوياتها بعد أن نهبوا منها ما أرادوا، وكانت أعظم مكتبة في بلاد المشرق.

وقد يكون هذا الزواج السياسي قد فرضته مصلحة القائم بأمر الله الخاصة الذي توخى منه احداث «قاعدة شعبيَّة» له في ديار أكبر قبيلة مغربية يعتمد عليها عند حدوث المفاجآت.. إذ يجد على مقربة منه نسباء أقوياء يحملون السلاح زوداً عنه وعن مملكته إذا ما دعت الحاجة.

وهناك مصدر آخر يذكر:

أنه تزوج من فتاة تنتمي إلى أسرة «الادارسة» التي كانت تحكم المغرب الأقصى... وهذه الأسرة تمت للفاطميين بصلة القرابة... فهي شرقية مثلهم وتنحدر من «الحسن بن علي بن أبي طالب» وكانت قد لجأت إلى المغرب الأقصى سنة ١٦٩ هـ حيث عملت على إقامة دولتها.

وهناك مصدر ثالث يقول:

أن زواجه قد تمَّ من ابنة عمه «عبيد الله المهدي»... ولكن يبقى المصدر الأول أقرب إلى الواقع، وأكثر رجحاناً.

قال عنه المستشرق «برنس مامور»:

كان رجلاً غامضاً عميقاً... لا يسبر غوره، ولا يُحاط بمداه... يأخذ بالقوة والحزم في الحوادث الطارئة، واستطلاع الأمور، وكان داهية له نظرة فاحصة تصل الى أعماق السرائر، وخفايا النفوس، وشجاعاً لا يلين له جانب، وكان عارفاً، وذا خبرة باختيار الرجال واصطفاء الأصدقاء... وبالإضافة إلى كل ذلك كان صبوراً وطيب القلب، يحب عمل الخير والإحسان، وفيّاً للشعب، يحب انصافه واسعاده وخاصة الطبقة الفقيرة العاملة، وكان محباً للحروب وللفتوحات يباشرها بنفسه، وينازل الأبطال في الساحات والميادين، وعرف عنه سعة حيلته في أساليب القتال، واستعمال الخديعة والحيلة والتمويه في بعض الأحيانُ.

أمّا بالنسبة للأدب وللعلم.. فقد عرف عنه تقديره ورعايته وعطفه على طبقة المتأدبين والعلماء والمؤلفين والشعراء.

يدلنا.. على ذلك اتصاله بكافة العلماء في عصره سواء بالمشرق أو بالمغرب... فقد ذكر:

أن الفيلسوف الكبير «أبو حاتم الرازي» الذي كان مولجاً بشؤون الدعوة الفاطمية في أقاليم الديلم وطبرستان واصبهان والري كان على

اتصال وثيق به بدليل أنه أهدى اليه كتابه القيم الثمين «الزينة»... وهذا الكتاب هو أشبه ما يكون بمعجم للاصطلاحات الفلسفية، واشتقاق الكلمات، أو قل عنه دائرة معارف كاملة، ومن المشهور عن هذا الفيلسوف أنه ناظر «أبو بكر الرازي» ودحض اراءه في الكثير من النظريات الفلسفية وخاصة الطب الروحاني، والطب الجسماني، والنظريات الخاصة بالنبوّة، وقد ورد كل هذا في كتابه «إعلام النبوّة».

وكان القائم بأمر الله على اتصال بالقرامطة البحرانيين وقيادتهم الممثلة بأسرة «آل الجنابي» وقد تمكن من استقطاب عدداً كبيراً منهم بالرغم من الاعيب العباسيين ومحاولاتهم ابعاد هذه الفرقة المحاربة عن الفاطميين، وهكذا بالنسبة لبعض امراء المقاطعات الفارسية الذين انتسبوا إلى دعوته الفاطمية ومنهم:

الاصفر بن شيرويه «أمير قزوين» وقائده مرداويج بن زيَّار الديلمي... وغيره من الامراء - والقواد الذين كانوا يرسلون الى القائم بأمر الله أموال «الزكاة».

ومهما يكن من أمر.. فان القائم بأمر الله تمكن وهو في بدء عهده، من تحقيق أكبر انتصار، وذلك عندما تمكن من استقطاب قبيلة «صنهاجة» الكبرى التي تتفرَّع من «زناتة» فقرَّب زعيمها «زيري بن مناد، ورفعه الى عقد مصالحة مع قبيلة «كتامة» وكانت الحروب متواصلة ومستمرة بين القبيلتين منذ مدة بعيدة، وقد جرى كل هذا رداً على «محمد بن خرز» زعيم قبيلة «مغراوة» المتفرعة ايضاً من «زناتة» وهذا الزعيم كان قد قام بحركة عصيان على الدولة الفاطمية بعهد القائم بأمر الله، وأعلن ولاءه للأمويين أصحاب الأندلس، ووضع نفسه بتصرفهم، ولكن مبادرة «صنهاجة» الأخيرة وهي من أكبر قبائل «البرانس» وقد يتفرع منها قبائل ثلاث هم: الطوارق والمقار

والملثمون، وانحيازها الى الفاطميين بالاتفاق مع «كتامة» قوى ساعد القائم بأمر الله، وجعله في مركز القوة يمسك زمام المبادرة بيديه.

«القائم بأمر الله في منصب الخلافة:

مات الخليفة الفاطمي الأول «عبيد الله المهدي» في قصره بمدينة المهديَّة فجأة بعد عمر طويل قضاه في الجهاد والنضال ومقارعة الأحداث والتصدي لعوادي الأيام.

مات القائد الذي استطاع ان يخلق دولة من العدم، في ديار بعيدة عن وطنه الأول، وفي أرض لم يسبق أن وطأتها قدماه أو عرف شيئاً عن طبيعتها وأحوال سكانها، فجعلها بين عشية وضحاها حقيقة موجودة ترنو اليها الأنظار... أو قل دولة ذات كيان ينظر اليها الشرق والغرب نظرة اعجاب وتقدير.

مات الرجل العظيم الذي نسج التاريخ عن حياته فصولاً شيقة رددها الركبان، وتغنى بها الرواة... وكم هو رائع ان تبرز في عباراتها العبقرية بأجلى مظاهرها.. تلك العبقرية التي تفاعلت وجاءت أخيراً لترفعه إلى القمة، وتضعه على عرش الخالدين.

أجل... لم يكن موت «عبيد الله المهدي» حدثاً عادياً بنظر الناس، أو عارضاً بسيطاً لا يثير الإهتمام والتساؤلات، ليس في أرجاء الدولة الفاطمية فحسب، بل في عموم المشرق والمغرب... وكيفَ لا يكون كذلك والدولة التي يتركها ما زالت بحاجة الى المزيد من العناية وتكريس الجهود للنهوض بها ورفع مستواها وجعلها في مصاف الدول الكبرى.

فمثل هذا الحدث الخطير يقع في الدولة الفاطمية وهي في مطلع شبابها ليس بالأمر السهل.. فغياب الرجل العظيم والمؤسس والقائد والموجه لا يمكن الاَّ أن يترك في نفوس العامة والخاصة على السواء آثاراً

وانعكاسات لم يكن سهلاً تناسيها او المرور بها مروراً عابراً أو غض النظر عمَّا تخلفه وراءها، أو تتركه من أخذ ورد وسؤال - وجواب.

هذا بالنسبة للناس ولرجال الدولة وللقواد وللولاة، أمَّا بالنسبة لولي العهد وللوريث القائم بأمر الله، فقد تحقق بأن المصاب أمضه ووقع عليه وقوع الصاعقة، وجعله فريسة الحزن والأسى والارتباك تنتابه الآلام والنوبات على الرجل الذي ربَّاه وعلّمه واحتضنه ودافع عنه ثم حفظ له الملك الواسع والامامة الكبيرة بحيث انه ردها اليه كأمانة كانت بعنقه دون أن يفكر يوماً من الأيام بمنحها الى أحد أولاده الشرعيين... وكان بامكانه ان يفعل ذلك.

أجل... ادرك القائم بأمر الله في تلك الساعة الرهيبة - ساعة الموت - بأنه فقد أغلى انسان عليه في الوجود... انسان لا يمكن أن يخلق الله مثله وفاءً وغيرة وأمانة... انسان رافقه في أيام المحن والشدائد وفي ساعات البهجة والسعادة.

لقد أدرك أنه أصبح وحيداً في وطن الغربة... فلا أهل ولا أقرباء ولا عصبية، ولا قبيلة يركن إليها.. الاَّ بعض افراد صغار وكبار لاحول لهم ولا قوة.. فالمهدي كان بالنسبة اليه النور الذي ينير جوانب نفسه والأمل الذي يطلُّ عليه من بعيد وبيده مشعل البشرى والرجاء، والآن انطفأ هذا النور وخبا هذا الضياء فليس غريباً إذا ما انتابته الأحزان، وعصفت به رياح الأسى.. ان «الأب الروحي» الذي تعهده منذ الصغر وسهر عليه وعلّمه وربّاه وأحلّه محل نفسه، غادره على حين غرة وبنفسه غصَّة على هذا الفراق الذي لم يكن هناك مفر منه.. ولكنها سنة الكون... بل هي خاتمة المطاف لكل انسان في هذه الحياة.

يذكر التاريخ:

أنه لبس عليه الحداد لمدة عامين... فكانت الإبتسامة خلال تلك المدة لا تعرف سبيلاً إليه، وذكر أيضاً أنه صبغ حجرات القصر

الفاطمي الكبير باللون الأسود، كما أنه لم يعرف عنه أن تخضَّب أو تطيَّب أو لبس الجديد من الثياب بعد موته، كما أنه لم يخرج من قصره راكباً على فرسه... وكانت هذه عادة درج عليها المهدي والقائم نفسه عندما يخرجان إلى المدينة، أو إلى أي مكان آخر.

أجل... مات عبيد الله المهدي... الخليفة الفاطمي الأول... ولكن هل كان موته كموت أي شخص آخر في الدولة الفاطمية؟... وهل تمر قصة هذا الموت بسهولة كأي حادث وفاة عادية، وهل تنجو البلاد بعد هذا الحدث من الكوارث والثورات والاضطرابات. وهل يصفو الجو للخليفة الجديد القائم بأمر الله ويجتاز المصاعب والعثرات؟

لقد كان من الطبيعي ان يفكر القائم بأمر الله بالأمر طويلاً... فكر وهو يضع أمام ناظريه وصايا المهدي إليه وهو على فراش الموت... تلك الوصايا التي تلزمه بالصبر على المكاره والأحداث، والوقوف امام الخطوب بعزيمة وطول اناة، وعدم الاستسلام في المواقف الصعبة لليأس، وتجنب القلق والارتباك ما دام هناك بصيص من أمل، وبارقة من رجاء... لقد كاد وهو في موقفه هذا أن يطبق الوصايا ويعمل على اقرارها، ويجعلها قبساً يهتدي به في حياته... ولكن بالرغم من كل ذلك فقد رأى ان يلجأ إلى الحيلة والحكمة... فقد خشي ان يؤدي إعلان نبأ الوفاة على الشعب إلى وقوع اضطرابات واندلاع ثورات وربما إلى انتفاضة سريعة تطيح بالأسرة وبالدولة الفاطمية الفتيَّة... وادخل في حسابه ان القواد لم يبايعوه، ولا ولاة الأقاليم، ولا العلماء، ولا رؤساء القبائل... ولم يغرب عن ذهنه وجود اعداء في الدولة يتربصون، ومعارضون ينتظرون.. وهم من القوة بمكان... فهؤلاء كانوا يرقبون غياب العقل المدبر... غياب الرجل القوي... ليسفذوا مهمتهم... ويضربوا ضربتهم... وهذا ما جعل القائم بأمر الله يكتم خبر الوفاة، ويعلن للناس ولأقطاب الدولة: بأن الخليفة يشكو من مرض بسيط وأنه

لا يلبث أن يتعافى، ويخرج للناس، وفي الوقت نفسه أرسل بطلب المخلصين من اتباعه، والمقربين من رجال الدولة وخاصة الكتاميين والصنهاجيين، فطلب اليهم مبايعته للخلافة تنفيذاً لأوامر المهدي... وهكذا فعل بالنسبة لقواد الألوية والكتائب وامراء الجيش ورؤساء القبائل والولاة والعلماء وأصحاب الرأي في الدولة... وبعد أن تمَّ كل شيء بنجاح اعلن عن الوفاة رسمياً.

ان التاريخ لم يغفل وصف وقع المصاب على الشعب المغربي، فهذا الشعب بأكثريته الساحقة اعلن عن حزنه لغياب المصلح الكبير والخليفة العظيم والقائد الملهم الذي بذل كل ما بوسعه في سبيل اسعادهم ورفع مستواهم وايصالهم الى كل ما يتمنونه من رغد العيش والحياة الأفضل... فالمهدي انقذهم من حياة الفوضى، ومن تسلط الجهل والقبلية العمياء، وقادهم في الطريق المؤدي الى الأمن والاستقرار حيث ساد النظام والقانون والعدل والمساواة.

وأخيراً:

ودَّع الشعب القائد الوداع الأخير، ودفنوه في المدينة التي تحمل اسمه «المهديَّة» بين الدموع والحسرات... دفنوه وهم يتطلعون للخليفة الجديد، وكلهم امل ورجاء بأن يسير على خطواته، وينفذ وصاياه، ويتمم البناء الذي اسسه، وهنا لا بد من التساؤل.. هل كان تأجيل اعلان الوفاة من قبل القائم بأمر الله كافياً لاخماد الفتن والثورات، وهل سيعم الأمن والاستقرار ربوع الدولة الفاطمية بعد وفاة المهدي؟.

ان الجواب على هذا السوآل سيظهر جلياً واضحاً في الصفحات التالية التي سنكتب فيها تاريخ «القائم بأمر الله» بصورة مفصلة خلال الأعوام الاحدى عشر التي قضاها على سدة الخلافة... والتي كانت مشحونة بالحروب والثورات العنيفة، والاضطرابات الداخلية التي كانت تغذيها وتمدها الدولة الاموية في الأندلس... وعلى العموم فهي من

أصعب وأعقد الفترات التي يواجهها حاكم.. فالقائم بأمر الله في خلالها لم تغمض له عين، ولم يهدأ له بال، كما لم تعرف الراحة اليه سبيلاً... وعندما نعلم ان ابواب عاصمة ملكه «المهدية» قد دقّت ابوابها اكثر من مرة من قبل الثائرين... وان سكانها اضطروا الى النزوح عنها بحيث لم يبق فيها الا حامية صغيرة للدفاع كان القائم على رأسها... أجل... عندما نعلم ان عائلة القائم بأمر الله نفسها اضطرت هي أيضاً الى التزوح عن المهدية الى بلد آخر فراراً من الاخطار المحدقة من كل جانب ادركنا اية صعوبات واجهت القائم بأمر الله وهو في مستهل حكمه.

قد تكون الأسباب كثيرة، والعلل وفيرة... فهذه الأقطار المغربية المؤلفة من شعوب وقبائل بدائية متعددة تعيش على الفطرة والفوضى، دون ان يكون لها أي رباط أو رادع يمنعها من الحروب والثورات أو يلزمها باتباع سبيل الضمير والشرعية والنظام أو الحكم العادل الذي يوفر لها الأمن والسعادة والوحدة... هذه الشعوب رأت ان كل هذا لا يتفق مع طبيعتها وحياتها التي شبت وترعرعت عليها.

وقد يكون من الواضح ان تعاليم عبيد الله المهدي واصلاحاته وتدابيره، وما حققه لها في فترة حكمه من ازدهار وعمران ورخاء لم يخفف من ثقل الحياة القبلية او يذهب آثارها، إلاّ لدى قلة من الناس... وانىَّ له أن ينتزع من النفوس الأمراض المتوارثة منذ مئات السنين، وتنقية الدماء الملوثة بالادران والعفن؟.

لقد اشتهرت تلك القبائل بحبها للقتال، وتعودت على شظف العيش والحياة القاسية التي اكسبتها التمرد وعدم الاخلاد للنظام... فنفوسها متأهبة دائماً وأبداً للمخاطر، وركوب متن الأهوال، واخلاقها على العموم لا تعرف اللين والسلام.

إنها قبائل لا تجد لذة إلاّ بالمباراة والمنازعة في سبيل النفوذ والجاه

والسيادة وجر المغانم.. فإذا انحازت احداها الى الامويين في الأندلس، فلا تلبث جارتها او شقيقتها ان تنحاز الى الفاطميين في المهدية بدافع الحسد والغيرة.

والى جانب ذلك كانت هناك دويلات صغيرة وامارات متناثرة، وزعامات تقليدية معرضة للأخطار الماحقة تموت احداها، فتنهض اخرى لتحيا على انقاضها... وهكذا دواليك.

قبائل تعيش على الطراز القديم الموروث الخارج على سنن التطور.. هدفها اثبات شخصيتها، وفرض ارادتها وتحقيق اطماعها، فلا عقيدة او دين يردعها، أو يصدها أو يقف في وجهها كما لا مبدأ يمنعها من اقتراف الجرائم والمنكرات.

تنقض المواثيق المبرمة، وتنكث بالعهود المعطاة دونما مبرر... فكل امير قبيلة أو حاكم مقاطعة جعل من نفسه حاكماً فرداً، وضرب بالقانون والشرع والاخلاق عرض الحائط... بل كل أمير يتربص بجيرانه من الامراء الدوائر متحيناً الفرص للانقضاض عليه وازالة ملكه، او اقتطاع جانب من أملاكه، وكثيراً ما يلجأ الى الدس والخديعة ومصادقة العدو الرابض، والاستعانة بالأجنبي الدخيل... أمراء يتلهون بتوافه الأمور وصغائرها عن الأمور الخيرة.. فكثيراً ما كانت تصرفهم عن اسداء الخير، وخدمة الأمة والوطن، وجعلتهم في مهب رياح الأهواء والنزوات.

أجل... في ذلك العهد.. عهد الدولة الفاطمية التي نحن في صدد التحدث عنها... كانت بلاد المغرب مكونة من شعوب وقبائل غير متجانسة، ومن عناصر وقبائل مختلفة لم يكن بالأمر السهل ادماجها في وحدة شاملة، أو اخضاعها على الأقل الى نظام عام، فطبيعة البلاد الجغرافية، وتوزيع السكان في المناطق، وانتشار القبائل بعضها في أمكنة صالحة، وبعضها في أمكنة عسيرة.. كل هذا وقف حائلاً دون

ايجاد العلاج الناجع.. فالوحدة التامة كانت متعذرة التحقيق كما ان اخضاع هذه القبائل الى سلطة عليا أو دمجها في دولة واحدة ضرب من المستحيل.. ومن هنا انبثقت المتاعب واطلت العثرات.

ومهما يكن من أمر.. فالشعوب التي تنتقل من حالة قديمة موروثة الى حياة جديدة لا بد لها من المرور بمراحل صعبة.. فقد يأتيها الحنين الى الماضي.. بسرعة وخاصة عندما تزول الاسباب.

وهكذا كان الوضع العام في عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله... وهذا ما سنتكلم عنه.

من الجدير بالذكر انه لم تتم للخليفة الفاطمي الاول «عبيد الله المهدي» السيطرة التامة على بلاد المغرب في شمالي افريقيا، فالثورات كانت تندلع في ارجاء مملكته من هنا ومن هنالك مهددة منذرة، تنطلق كلما وجد أصحاب المطامع والناقمين والمعارضين فرصة سانحة، أو سبيلاً لاضرام النار، وإعلان التمرد والعصيان.

أجل... لاقى عبيدالله المهدي صعوبات كثيرة في اعادة الهدوء والاستقرار الى ارجاء دولته الفتية خاصة بعد مقتل قائده أبي عبد الله الشيعي. فكم من مرة اضطر الى فرض المعارك بنفسه او بواسطة ولي عهده «القائم بأمر الله» فتأديب العصاة، واخماد الثورات كانت عمليات شاقة بالنسبة الى رجل أنيطت به مهمات الحكم في دولة جديدة، ولعل أهم الأحداث الطارئة ابان حكمه خروج قبيلة «زناتة» عليه واتخاذها خطة العداء لدولته شعاراً لها وهدفاً، أو بلغة أصح سلوكها سبيل التصدي والهجوم على هذه الدولة في أية جهة كانت.

ويجب أن لا يغيب عن بالنا العداء القديم المتوارث الذي حملت لواءه الدولة الأموية في الأندلس للفاطميين، فهذا العداء كان من المفروض ان ينتهي أثره ويدخل في طيات الدهور بعد زوال الدولة الأموية من ديار الشام، ولكن من المؤسف أن هذا العداء قد عاد من

جديد الى الساحة في ديار المغرب والأندلس، في وقت يعتبر أصحاب وسكان هذين القطرين الأمويين والفاطميين معاً غرباء ودخلاء جاءوا الى ديارهم غزاة وفاتحين ومستعمرين.

وليس بخافٍ بأن ذاك العداء لم يكن نسيانه بالأمر السهل.. إنه ما زال يسري في العروق والدماء منذ وفاة الرسول الكريم محمد ﷺ... فالفاطميون يعتقدون بأن الأمويين اغتصبوا حقهم في الخلافة، ونازعوهم وحاربوهم واضطهدوهم، وقتلوا خيرة رجالهم. وعندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب ازداد حقد الأمويين في الأندلس على هذه الدولة التي قامت فجأة على مقربة منهم تقاسمهم النفوذ، وتسد عليهم ابواب السيادة.

أجل... خافوا من خطرها، وامتداد رقعتها... ولهذا نراهم قد وضعوا جيوشهم في حالة الترقب واليقظة والحذر، ومراقبة كل شاردة وواردة، ولم يكتفوا بذلك بل خصصوا أجهزة عديدة من العيون والارصاد لمراقبة كل ما يصدر من تحركات عدائية ضدهم من جانب هذه الدولة الفاطمية، فضلاً عن اتخاذهم زمام المبادرة لتمويل الحركات الثورية والانتفاضات التي تنبعث ضد الفاطميين بالأموال والعتاد والذخيرة، وأحياناً بالرجال، وكان مبعث كل هذا الخوف أن يبادر الفريق الثاني الى هجوم مباغت بقصد الاحتلال والتدمير.

ومما لا يخفى أن الدولة الأموية في الأندلس بعهد «عبد الرحمن الناصر» كانت غنية بمواردها وأموالها ولكنها كانت متعبة من أوضاعها الداخلية، وظهور اعداء أقوياء وبزوغ المؤآمرات وانبثاق الثورات... وكان الروم بالإضافة الى كل ذلك يطمعون ويعملون على توسيع املاكهم والنفاد الى الجنوب... وخاصة بعد أن تمَّ لهم السيطرة على «برشلونة» وكانت الإمارات المسيحية في الأقاليم الجبلية الشمالية تهدد وتقض مضاجع اركان عرش الخليفة الأموي... ويدخل في نطاق هذه

التحركات المطالبة بالاستقلال... ولكن كل هذا كان يقابل من قبل الأمويين برباطة الجأش.

والحقيقة:

فإن كل هذا لم يكن يشكل خطراً على الدولة بنظرهم، وانما الخطر الذي كانوا يحسبون له ألف حساب هو الخطر الفاطمي الذي كانوا ينظرون اليه من زاوية الثأر والعداء القديم الموروث، والأحقاد الدفينة الكامنة.

المصادر التاريخية اجمعت على القول:

بأن الخليفة الأموي «عبد الرحمن الناصر» لم يفكر قط أو يحاول مرة فرض سيادته على أي جزء من بلاد المغرب... وكل ما فعله أنه استولى على «سبته وطنجة» ليس لمجرد الاستيلاء عليها، بل لاتخاذها نقطة دفاعية، أو درعاً يحول دون الاعتداء، أو الاغارة على أراضي الأندلس... وإذا كان عبيد الله المهدي لم يقم بمثل هذا الاعتداء، فقد يقوم به «القائم بأمر الله» فالأمويون كانوا يحسبون لهذا الأمر ألف حساب.

لقد كان خليفة قرطبة يتبع بالنسبة للمغرب نفس السياسة التي تمشى عليها مع الملوك المسيحيين، فلا اعتداء ولا ضم اراضٍ جديدة... بل وقوف موقف المدافع، والإكتفاء بالوضع الراهن والمحافظة على كيان الدولة وحدودها الطبيعية، بالإضافة الى إشغال الفاطميين بأمور جانبية داخلية تلهيهم عن الالتفات صوبه.

لقد كانوا يتساءلون عن السر الذي يكمن وراء سكوت «عبيد الله المهدي» عنهم عندما استتب له الأمر تقريباً في المغرب... فكان لديه الأسطول الكبير الذي ورثه عن دولة الأغالبة، وكانت تحت امرته الجيوش الجرارة التي حطمت الأغالبة وبني رستم والادارسة... فهذه

الجيوش بدل من أن يوجهها اليهم أرسلها الى مصر بقيادة القائم بأمر الله، فخطته كانت تهدف الى جعل دولته امبراطورية كبرى تبتدىء من المحيط الأطلسي وتنتهي في أطراف الخليج العربي.

وهنـاك احـتمال آخر هو الوصول الى الشرق حيـث الأوضـاع المتردية أسهل وأقل كلفة... والمعروف عن عبيد الله المهدي انه كان شديد الحنين الى الشرق حيث ولد وشب وترعرع، وانه ادخل في حساب المكاسب التي سيجنيها من السيطرة على الأندلس، وبين المغانم المعنوية التي تنتظره في المشرق... ففضل الرأي الأخير.

ويبدو أن القائم بأمر الله كان حريصاً على تنفيذ وصية المهدي وتعاليمه، فنزع فكرة الأندلس من ذهنه، وتوجه بأنظـاره الى المشرق، ولكن الأقدار لم تساعده، ووقفت بينه وبين تطلعاته ثورة الادارسة من جهة، والزناتيين من جهة ثانية، وجاءت في خاتمة المطاف ثورة الخوارج لتضعه امام تجربة قاسية... تلك الثورة العنيفة التي لم يشهد تاريخ المغرب مثلها عنفاً وكثافة واراقة للدماء... ولا شك انها حولته عن كل هدف وشغلته عن التطلع الى أية جهة من الجهات.

القائم بامر الله
امام الاحداث والعواصف:

استهل القائم بأمر الله عهده بتجهيز حملة كبرى عهد بقيادتها الى «ميسور الفتى» وهو احد القواد الكتاميين المجربين، وكان موضع ثقته... وأمره أن يسير الى «برقه» في المغرب الادنى ويتمركز فيها بانتظار اوامر جديدة.

هـذه الحملة جهزت لاحتلال مصر.... فمصر كانت منذ البدء ومَا تزل حلم الفاطميين وهدفهم الأول ومهوى أفئدتهم... فهم لم يتوقفوا يوماً من الايام حتى منذ أن كانت دعوتهم قائمة في سلمية – سورية عن

إرسال الدعاة والرسل الى هذا القطر الذي طالما ادخلوه في حسابهم، وقرروا أن يجعلوه يوماً من الأيام قاعدة لهم ولدولتهم ونقطة للعبور الى المشرق حيث القدس ودمشق وحلب، ومن بعدها بغداد، مضافاً الى ذلك أن الاستيلاء عليه يضمن سيادتهم على البحر الابيض المتوسط والنفاد الى بحار اخرى وممالك أكثر غنى وثروة.

وجاءت الاخبار من المشرق تفيد بأن العباسيين اصبحوا في وضع داخلي لا يسمح لهم بارسال جيوشهم للدفاع عن مصر أو أي اقليم آخر تابع لدولتهم.

ففي بغداد كانت حالة الدولة مضطربة أشد الاضطراب، تسير من سيء الى اسوأ، فممتلكات هذه الدولة في الخارج اخذت تضيع الواحدة بعد الاخرى... فهذه افريقيا الشمالية وما تضمه من بلدان المغرب، وقبلها الاندلس، ومصر المهددة بالسقوط بين عشية وضحاها، مضافاً الى كل ذلك استقلال الحمدانيين بالموصل، وغارات البيزنطيين العنيفة المستمرة على الحدود المتاخمة، وقيام بعض امراء الولايات ينادون باستقلال ولاياتهم... كل هذا والخليفة اصبح آلة بين ايدي رجال البلاط وذوي الاطماع، وتحت رحمة حراس أجانب يأتمرون بأوامر القواد الاتراك وغيرهم، وأصبحت او كادت أن تقع البصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي وفارس في ايدي بني بويه وكرمان في يد محمد بن الياس، والري واصبهان والجبل في ايدي بني بويه ايضاً، ومصر والشام في يد محمد بن طغج - وخرسان وما وراء النهر في يد «نصر بن احمد الساماني» وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في ايدي القرامطة.

أجل... وضع القائم بأمر الله هذه الحقائق امامه، وادرك بعد دراسة للامور بأن امتلاك مصر ضرورة للدولة الفاطمية... مصر التي كانت منذ القديم المهد الصالح والارض الطيبة لقبول الدعوات الشيعية

والبلاد الآمنة التي اشتهر شعبها بحبه للأمن وللهدوء وللاستقرار.

لقد ذكرت المصادر التاريخية أن الفاطميين في حملاتهم الثلاث التي ارسلوها من المغرب الى مصر بعهد الخليفة الأول عبيد الله المهدي كان يسبقها دعاة مجربون اعدوهم اعداداً حسناً للدعاية وزودوهم بكافة المتطلبات وهؤلاء كانت مهماتهم الاختلاط في صفوف الشعب والتحدث الى الاهلين وترغيبهم بالانتماء الى الفاطميين... وبالفعل كانت دعايتهم تثمر في بعض المواقف، وتتعثر في مواقف اخرى، ولكنها على العموم في نهاية المطاف أتت اكلها وتم لها ما زرعته.

فالحملة الأولى بدأت سنة ٣٠١ هـ وكان على رأسها القائد الكتامي المشهور «حُباسة بن يوسف» وكان والياً على برقة من قبل عبيد الله المهدي، فزحف الى الديار المصرية على رأس جيش كانت أكثريته من الكتاميين وقد تمكن من احتلال الاسكندرية وكامل الوجه البحري، ومن الجدير بالذكر انه لم يلق مقاومة تذكر، وعندما علم الخليفة العباسي المقتدر ارتعش لهذا الهجوم المباغت، فأمر باعداد حملة عسكرية جعل قوامها اربعين الفاً، وعهد بقيادتها الى «مؤنس الخادم» فزحف الى مصر، واشتبك مع الجيش المغربي بمعارك عديدة تمكن في نهايتها من الانتصار وارغام حباسة على التراجع، ولم تنفع الامدادات التي أرسلها المهدي وعلى رأسها ولي العهد عندئذٍ القائم بأمر الله. ومن الجدير بالذكر أن قوى العباسيين كانت أكثر عدداً وتنظيماً وأهلية لخوض المعارك الكبرى، بينما الجيش الفاطمي الحديث العهد بالحروب كانت تنقصه المرونة والتدريب ومعرفة أساليب القتال، فضلاً عن أنه تعرض الى نقص في العتاد والمواد الغذائية، ويذكر التاريخ:

أن الشعب المصري في ذلك الوقت انقسم الى فريقين: فريق مؤيد للمغربيين الفاطميين، وفريق مؤيد للعباسيين وقد اندلع القتال في اكثر من مكان بين الفريقين، ولكن الجيش العباسي تمكن من اخماد الفتنة.

وفي سنة ٣٠٧ هـ. اعاد الخليفة عبيد الله المهدي الكرة فجهّز حملة ثانية اعدها اعداداً جيداً وزودَها بالمؤنة وبكافة المتطلبات والضروريات وعززها هذه المرة بالاسطول الذي انطلق من قاعدته صقلية باتجاه الاسكندرية - أمّا الجيش فسلّم قيادته العامة لولي العهد « القائم بامر الله » الذي زحف عبر طرابلس الغرب وبرقة فتمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على الاسكندرية والجيزة وكامل الوجه البحري، ولكن الخليفة العباسي المقتدر جهّز حملة ثانية وجعل قوامها ستين الفاً بقيادة مونس الخادم، فهبط مصر واشتبك مع القائم بأمر الله بمعارك طاحنة... وأخيراً تمكن من الحاق الهزيمة بالفاطميين، كما تمكن من احراق بعض مراكبهم وسفنهم التي كانت راسية في ميناء الاسكندرية. وهكذا عاد القائم بأمر الله يجر اذيال الخيبة والفشل.

وفي سنة ٣٢١ حتى سنة ٣٢٤ هـ. جهز المهدي حملة اكثر عدداً وتنظيماً وعهد بقيادتها الى القائد الكتامي « حبشي بن احمد » وذكرت بعض المصادر أن القائم بأمر الله رافقه في حملته هذه، وهكذا تمكن من الاستيلاء على اكثر البلدان ومدن القطر المصري... مما دعا زعماء البلاد والشيوخ الى المثول بين يديه واعلان الطاعة والولاء ، وقد اتفقوا معه احيراً على توقيع معاهدة صلح.... فعادت الجيوش الفاطمية الى المغرب بعد أن تركت في المدن بعض الجنود ولكن الأخشيديين وانصارهم قاموا بثورة داخلية، وتمكنوا من قتل الجنود المغربيين واعادة البلاد الى الحظيرة العباسية.

إن هذه الذكريات عرضت في ذهن القائم بأمر الله وهو في مستهل عهده، وكانت الحافز الذي دفعه الى إرسال الحملة الرابعة للتمركز في « برقة » كما ذكرنا.

ثورة جديدة في المغرب الاقصى

في كتابنا عن « عبيد الله المهدي » الخليفة الفاطمي الأول، اوردنا

لمحة موجزة عن ثورة « موسى بن ابي العافية » ومراحلها ومؤثراتها، فهذا الثائر العنيد المتقلب الذي ينتسب الى الادارسة اصحاب مدينة « فاس » في المغرب الأقصى... بل هذا الرجل المتردد بارائه، والطامع بالملك مهما كانت التضحيات التي يبذلها، والدماء التي يسفكها، لم يكن يقف عند حد من الحدود، او يرتدع عند نقطة معينة... ففي حياته وسلوكه ما يضحك... واننا نراه تارة يعلن الولاء للفاطميين، ويحارب باسمهم، ويسير مع قوادهم في الاقاليم والامصار يدلهم على مواقع الاعداء والثائرين الخارجين على اوامر الدولة العليا، لقاء وعد بتوليته منصباً او اجراً او امارة صغيرة يحكمها في احدى مقاطعات المغرب الاقصى، وتارة يتوجه الى الاندلس، ويتسكع على ابواب اصحابها الامويين طالباً منهم العون لاسترجاع بلاده المحتلة... معاهداً على الثبات والاخلاص والخضوع لطاعتهم والمناداة باسمهم.

وكنا ذكرنا في الكتاب المذكور انه بعهد عبيد الله المهدي اصيب بالفشل والخذلان بعد سلسلة من المعارك العنيفة انتهت بانكساره واضطراره الى الفرار واللجوء لجهة مجهولة، والتخفي عن الانظار... ولكن ما كاد وجه الخليفة الاول المهدي يغيب عن الوجود حتى خرج من مخبئه متسللاً الى قلب البلاد، فنفخ في بوق الثورة واخذ يحرض الناس على العصيان وخلع طاعة الخليفة الثاني القائم بامر الله... داعياً الناس الى الانخراط في جيشه الذي الفه وأناط به مهمة استرجاع الاراضي المغتصبة من قبل الفاطميين.

وليس غريباً أن يفتح له الخليفة الاموي « عبد الرحمن الناصر » ابواب خزائنه، ويمده بكافة المتطلبات والاحتياجات الكفيلة باحراز النصر واشغال الدولة الفاطمية بامور جانبية تعوقها عن اكمال مسيرتها وتنفيذ مخططاتها.

فهبط موسى احدى القرى القريبة من فاس، واتخذها قاعدة لحشد

قواته، ومنها انطلق الى الجهات المجاورة.... وقبل اقدامه على هذه الخطوة دعا «احمد بن عبد الرحمن الجزامي» الى التعاون معه ... فاستجاب له، ودشن عمله بالهجوم على مدينة فاس وقتل واليها الفاطمي «حامد بن حمدان» .... ثم قدّم رأسه الى «موسى بن أبي العافية» الذي ارسله بدوره الى الناصر الأموي في قرطبة، عربوناً للولاء وتنفيذاً للعهد... وكانت هذه الهجمة - أول انتفاضة تقع في عهد القائم بأمر الله.

أجل .. انطلق موسى الى البلدان المجاورة بعد عملية فاس، فأخذ ينتزعها الواحدة تلو الاخرى. ويبسط نفوذه عليها، ومن هذه البلدان كان يجند الجنود، ويضمها الى جيشه الزاحف الذي كان يتلقى المعونات - المالية والغذائية باستمرار من قرطبة مما يجعله في وضع ممتاز من حيث المعيشة والاستعداد، وبعد أن فرغ من احتلال المنطقة المحيطة بفاس بكاملها توجه الى الريف وبلاد «عمارة» وكانت تحكم في هذا الوقت من قبل الادارسة الموالين للفاطميين الذين دعموها بحاميات وقوى كبيرة للمخافظة عليها، فانذرهم موسى بالتخلي عن الفاطميين والانضمام اليه وعندما رفضوا طلبه اعلن عليهم الحرب، وبعد سلسلة من المعارك تمكن من احتلال بلادهم واخضاعها بقوة السيف اليه.

هذه الانتصارات السريعة... بل هذه المفاجأة المذهلة وما رافقها من جرائم وحشية واستباحة واعمال بربرية امر موسى بن ابي العافية جيشه باقترافها في المدن والقرى، حركت القائم بأمر الله وجعلته يهرع الى ارسال كتاب الى قائده «ميسور الفتى» الذي كان يعسكر في «برقة» على حدود مصر، يدعوه فيه الى الاسراع في الحضور وتجميد كل هجوم على مصر في الوقت الراهن، للمساهمة بالدفاع عن الدولة التي اصبحت تحت رحمة الثورة الكبرى التي يمولها الأمويون، فجاءه ميسور الى المهدية ملبياً النداء، ولم يلبث أن اضاف القائم بامر الله الى جيشه فرقاً

اخرى اعدها قبل وصوله، ثم ارفقه بعدد من القواد الكبار الذين عرفوا باخلاصهم للفاطميين وبحسن بلائهم في المعارك التي خاضوها بعهد الخليفة الاول عبيد الله المهدي.

فزحف ميسور الى فاس ثم طوقها منذراً حاميتها بالاستسلام، ولكن هذه الحامية ابت الاستجابة فأحكم عليها الحصار الذي دام سبعة اشهر... اما موسى فعندما علم بقدوم ميسور ومحاصرته لفاس، ارتد مع جيشه الى منطقة فاس وفي نيته فكّ الحصار عنها، ولكنه لم يتمكن لأن ميسور كان قد دخلها عنوة والقى القبض على حاكمها «أحمد بن بكر» ثم كبّله في الحديد وارسله الى المهدية، وهناك تم اعدامه ثأراً لحاكمها الفاطمي «حامد بن حمدان» وكان ذلك سنة ٣٢٣ هـ.

امّا موسى فبعد أن خاض مع جيشه عدة معارك مع ميسور، وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الفاطمي الكثيف الذي يقوده قائد شجاع عرف بعنفه وسعة تدبيره وواسع حيلته..... فترك منطقة فاس وسار الى «ناكور» وهي عاصمة «صنهاجة» وتقع على ساحل المغرب الاقصى، فتمكن من احتلالها وقتل كل من كان فيها من الموالين للدولة الفاطمية... وهذا العمل اعتبره المطلعون بأنه مقدمة لانهيار موسى وخذلانه لا سيما وقد اثبت انه رجل متعطش لسفك الدماء...يروقه القتل، والعبث، والنهب، وتدمير المدن، واستباحة الاعراض، دون رادع من ضمير، او خوف من عقاب، او أي حساب للمستقبل... وكل هذا عجّل بنهايته وجعل الكثيرين من جنده يفرون ويلجأون الى الجيش الفاطمي.

هذه الأخبار المزعجة... بل هذه الجرائم الوحشية التي فاقت حدود الوصف وصلت الى اسماع الخليفة القائم بأمر الله، فأمر بتجهيز جيش آخر عهد بقيادته الى الكتامي «صندل الفتى» وهو ابن عم ميسور وقيل شقيقه، فأعطاه الاوامر المشددة بضرورة استرداد «ناكور»

والقضاء على ثورة موسى بأي طريقة كانت فامتثل صندل للأمر، وغادر المهدية سنة ٣٢٣ هـ. وعندما وصل الى ناكور وجد أن السلطة الفاطمية قد زالت عن المدينة وما يجاورها كلياً، وهذا ما دعاه الى دخولها عنوة، فقبض على اتباع موسى، وعيّن عليها حاكماً اسمه «مرمازو» ثم خرج منها الى الضواحي حيث وطّد الأمن والاستقرار في ربوعها وازال كل اثر لموسى عنها، وبعد ذلك يّمم شطر فاس... وكان موسى قد عاد اليها ثانية، بعد أن تمكن من اعداد جيش جديد وكبير بمساعدة الامويين الذين فتحوا خزائنهم ثانية، وأغدقوا عليه الاموال الوفيرة والاسلحة والعتاد والمؤونة.

ومهما يكن من أمر ففي تلك الفترة اخذت الاحداث تتفاعل، وتتخذ اشكالاً مختلفة، وكلها تحمل في طياتها المتاعب والفترات المفاجئة...فقد قامت ثورة اخرى من جانب ثانٍ، وبرزت الى مسرح الاحداث وهي ترتدي طابع القوة والعنف...فهذه الثورة تولّى قيادتها «محمد بن خزر» زعيم قبيلة «زناتة» المعروف بصلته ومحبته للأمويين، فكان اول عمل قام به الهجوم على مدينتي «تاهرت ووهران» وعندما تمكن من احتلالها اندفع باتجاه المغرب الأوسط.... وكانت هذه الخطة تهدف الى الاستيلاء على كامل المغرب الأقصى، وتحقيق احلام الزناتيين باقامة دولتهم الكبرى التي ارادوها أن تكون جزءاً من دولة الاندلس الاموية.

المطلعون على وقائع الأمور، والخبراء بشؤون المغرب وتاريخه قرروا: بان ثورة الزناتيين تلك لم تقم في تلك الفترة الاّ للتخفيف عن «موسى بن ابي العافية» أو بلغة اصح لتفسح المجال امامه للتقدم والانتصار وذلك بعد أن يصبح القسم الأكبر من الجيش الفاطمي منشغلاً بقتال الثورة الثانية... وكل هذا معناه أن ثورة الزناتيين ما قامت الاّ لتكون رديفاً لثورة موسى، وقد علم بانها كانتا على اتصال

دائم يتبادلان المشورة والتفاهم على الخطط الحربية، ورصد تحركات جيوش الفاطميين في البلدان والأمصار، وافساد خططها، وتعطيلها.

لقد ادرك القائم بأمر الله كل ما أعده الاعداء له... ادرك انه اصبح امام خطر داهم محدق به وبدولته، وأنه تحت رحمة فكّي كماشة بدأت بعيدة ثم أخذت تقترب رويداً رويداً للاطباق على قاعدة دولته، ولم يغب عن باله في تلك الساعات الحرجة بأن اقل انسحاب لجيوشه من منطقة فاس سيشجع موسى على العودة اليها واضرام النار فيها، كما أن الاحتفاظ بهذه الاعداد من الجيوش لحماية المنطقة المذكورة يشجع الزناتيين ويفسح المجال امامهم للتمادي في هجماتهم. واحتلال المواقع الجديدة - ثم التقدم صوب العاصمة المهدية.

هذه الوقائع مجتمعة حسب لها القائم بأمر الله، الف حساب، وناقشها مع مستشاريه والمقربين اليه وجميعهم نصحوه بالتحرك والعمل على انقاذ الموقف قبل فوات الاوان. ويذكر التاريخ:

أنه قصد فاس بنفسه... وهناك اجتمع باصحاب الرأي واعيان المدينة، فشرح لهم خطورة الموقف، وأبان عن الاخطار الكامنة التي ستحدق بهم اذا ما انتصر موسى في ثورته، واتاح للأمويين السيطرة والتسلط على بلدهم، ولم ينسَ القائم بأمر الله ان يضع امامهم صورة عن فظائع موسى وجرائمه في المدن والقرى التي احتلها. وفي نهاية المطاف توصل الى عقد معاهدة صلح لقاء عشرة الاف دينار، تدفع لخزينـة الدولة الفاطمية في كل عام على أن تبقى الخطبة باسم الفاطميين، وهكذا الشعار والعملة وعلى أن يرجع الوالي الذي يعين الى القائم بامر الله في القضايا الطارئة العليا التي تمس استقلال المقاطعة ومستقبلها... اما اختيار الوالي فترك للاهلين... وفي هذا كله يبرز الاستقلال الاداري للمقاطعة باجلى مظاهره.

وبعد أن تم للقائم بأمر الله ما اراده، عاد الى المهدية، بعد أن

اعطى اوامره الى ميسور بمغادرة فاس والزحف الى حيث يتمركز موسى لتأديبه والقضاء على ثورته مهما كانت النتائج، ومهما بلغت التضحيـات، وخـاصـة بعـد أن وصـل الى مسامعـه عودة موسى من قرطبة، بعد أن وقع مع الخليفة الاموي «عبد الرحمن الناصر معاهدة تقضي بـالـدعوة لـلامويين واقـامـة شعـاراتهم والالتزام بطـاعتهم في كـل مكان أو بلد يتم له تحريره... وخاصة ما كان منها واقعاً تحت سيطرة «الادارسة» الموالين للفاطميين.

وصل القائد «ميسور» الى حيث يخيم موسى وجيوشه الجرارة... وذكر أنه كان يتأهب للزحف على «تلمسان»، فاشتبك معه بمعارك عنيفة كانت في الايام الاولى سجالاً، وقد بذل الفريقان خلالها كل ما يملكـانـه من قوى، وكـل مـا عنـدهما من اساليـب الحرب وفنون القتال....وتشاء الظـروف وحسن طالع ميسور في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة، أن تمتد الى القائد الفاطمي يد العون، وذلك عندما هرعت اعداد كبيرة من قوات «الادارسة» الى الانضمام اليه بقيادة «الحسن بن ابي العيش»، فانقلب الموقف رأساً على عقب ومال الى صالح الجيش الفاطمي، فالادارسة ارادوا أن يتخلصوا من موسى ومن حكمه الجائر، وأن يثـأروا لقتـلاهم من الادارسة الابريـاء الـذين سقطوا صرعـى بحراب موسى دونما اي ذنب وذلك عندما توغل مع جيوشه في ريف المغرب الاقصى، وقد ذكر أن بين الضحايا العديد من النساء والاطفال والشيوخ.

إن هذا الحدث المفاجىء الذي لعبت فيه الدعاية الدور الرئيسي افسح المجال امام ميسور للسيطرة منذ اللحظة الاولى على ميادين القتال، واستلام زمام المبادرة، وتحقيق انتصارات سريعة حاسمة... كان اولها القاء القبض على عدد من قواد الكتائب، وفي طليعتهم احد اولاد موسى الذي كان يعاون والده بمهمة القيادة.

فكبلهم وارسلهم مخفورين الى المهدية... وتوالت بعد ذلك انتصارات ميسور... وفي المعركة الاخيرة فرّ موسى من الساحة، وترك جيوشه تعاني المصير المشؤوم، ولم تلبث أن انقلبت الى شراذم كان اهم ما تعمل له ايجاد سبيل للفرار من الطوق المحكم، وعندما تمكنت هذه الشراذم من الخروج من الميدان الى البراري والقفار، لحق بها ميسور وأعمل فيها السيف، وما زال يتتبعها ويسد عليها منافذ الطرق والهرب حتى القى اكثرها السلاح، واستسلمت خائرة نادمة على ما فعلته، وارتكبته من جرائم بحق الآمنين.

أما موسى فقد اختفت آثاره، وانقطعت اخباره، ولم يعرف مصيره فيما بعد، وكانت هذه - الضربة الاخيرة كافية لاخماد صوت الثائر المتقلب الذي شغل الدولة الفاطمية فترة من الوقت، وكاد ينتصر على جيوشها لولا جهله ونزوع نفسه الى اقتراف الجرائم، والاساءة الى الآمنين.

بعد أن تم للقائد ميسور تحقيق هذا الانتصار الحاسم ارسل الى القائم بامر الله كتاباً يعلمه فيه بما حققه.. ويذكر له النقطة التي يتوقف فيها بانتظار اوامره... فأرسل اليه الجواب السريع وفيه اوامره التي تقضي بان يولي «الادارسة» الذين اشتركوا معه في القتال، وساهموا بمعركة النصر البلدان والمقاطعات التي تم تحريرها من مملكتهم «القديمة» وأوصى القائم بامر الله قائده بان يمنحهم الصلاحيات، ويزودهم بالمتطلبات الكفيلة باقرار الأمن والهدوء في البلدان المحررة.

وهكذا اعاد القائم بامر الله لهذه الاسرة اعتبارها ونفوذها وبعض ممتلكاتها في اجزاء المغرب الاقصى وكل هذا يدل على الوفاء والالتزام بالعهود والمواثيق، ويعطي الدليل على أن القائم بامر الله اعتبر الادارسة من انصاره وانه اصبح بالامكان اعتمادهم واتخاذهم درعاً بوجه الامويين.

أما الادارسة من جهتهم فقد التزموا بالمبادىء الفاطمية، وحافظوا على عهدهم وولائهم، فدعوا للخليفة الفاطمي على المنابر، واعلنوا له الطاعة والولاء، والتزموا بأوامره بحيث كانوا يرجعون اليه في القضايا الرئيسية العليا، ولم يتوانوا عن شن الحملات على انصار الامويين، فزجوهم في السجون، وابعدوا بعضهم، وسدوا جميع المنافذ امام تحركاتهم حتى دانت لهم المناطق التي تسلموا الحكم فيها، وساد كل ما يسمى امن واستقرار.

لقد كان «الحسين بن ابي العيش» هو المسؤول الأول عن الادارسة في تلك الفترة،فهو الذي قادهم في المعارك التي خاضها الى جانب ميسور، كما انه هو الذي تولى احتلال مدينة «تلمسان» سنة ٣٢٥هـ وبعدها مدينة «أصيلة» وما يتبعها، وفيها اعلن الخطبة باسم القائم بامر الله الفاطمي، ورفع الشعارات، وابقى على العملات.

ومهما يكن من أمر.... فبعد أن انجز ميسور كل ما طلب اليه الخليفة القائم بامر الله... توجه الى وهران، فاستولى عليها ونزع سلطة الزناتيين عنها واقام عليها احد القواد الفاطميين. ثم انطلق الى تاهرت فدخلها وقبض على «أبي قاسم بن مصالة» عامل الزناتيين، ومنها توجه الى «افريقيا» فاستولى على «ارشكول» وولّى عليها يحي بن ابراهيم، ومنها عاد الى القيروان وهو رافع الرأس يجر اذيال النصر.

هذا ولا بد من القول:

بأن ثورة الزناتيين بعد أن اخذ ميسور يكيل الضربات الموجعة لموسى بن ابي العافية بدأت قوتها تنهار تلقائياً، فاستولى على قائدها محمد بن خرز الهلع وتوقف عند حدوده حاسباً للأمر، متيقناً بأن دوره لا بد أن يأتي بعد أن يخبو نجم موسى، لهذا عاد ولازم حدود دياره... ولكن هذا التدبير لم ينقذه من الحساب العسير... فقد تمكن ميسور من اللحاق به وخوض عدة معارك معه كانت نتيجتها فراره الى الصحراء، وهكذا

استعاد ميسور كافة المدن التي احتلها واعادها الى نفوذ الفاطميين وطاعتهم.

واخيراً:

فإن ثورة موسى بن ابي العافية العنيفة التي عكرت صفو حياة القائم بامر الله وشغلته عن قضايا كثيرة وهو في مستهل عهده قد كلفت الدولة الفاطمية المتاعب وكبدتها الباهظ من النفقات...هذه الثورة التي تميزت بعنفها وقوتها ووحشيتها كادت تنتصر في نهاية المطاف على جيوش الدولة الفاطمية وخاصة عندما قامت الى جانبها ثورة الزناتيين، ولكن ارتكاب موسى الاخطاء واستباحته الدماء وخرقه الحرمات والاعراض اوغر صدور الناس عليه في كل مكان، وجعل قلوبهم تمتلىء حقداً عليه، فكانوا يتمنون ويدعون الى الله أن تلحق به الهزائم، بينما العديد من جنده وقواده استنكر تصرفاته واستهجن اعماله، فهرع البعض منهم الى الانقلاب عليه والتطوع في جيش الفاطميين - وهو يحمل شعار النقمة والسخط والثأر.

ولا ريب انه كان للدعاية اثرها في تحريك النفوس واثارتها عليه بعد ثبوت الجرائم عليه وعلى اعوانه، وهم في حروبهم. ومما يجب أن يذكر بأن الطيب واللين ومعاملة الناس وخاصة الذين يقعون تحت كابوس الاحتلال بالمعروف والعطف كثيراً ما تترك اثراً طيباً في القلوب وتكون عاملاً للقائد على اكتساب المعارك والانتصار في الميادين، وقد ذكر أن كل هذا كان شعار الفاطميين في حروبهم التي خاضوها... بالاضافة الى اعتمادهم على الدعاية اكثر من اعتمادهم على السيوف والرماح.

نقول هذا... ونحن نرى انهم تمكنوا من استقطاب الادارسة وجرهم الى اللحاق بهم، وأقنعوهم بضرورة التعاون للقضاء على ثورة موسى التي يعولها الامويون... وكل هذا جرى بالرغم مما كان بينهم من عداوة

ومناظرة قديمة.

مضافاً الى ذلك كان لوعدهم باعادة املاكهم وبلدانهم اطيب الاثر في نفوسهم، ولعل هذا كان من العوامل الذي شدّ من عزائمهم، وجعلهم يبذلون كافة جهودهم في المعارك التي خاضوها.

وهكذا نجحت خطة السلام الى جانب خطة الحرب، فتفرق من حول موسى اصحابه واعوانه، ووصل ميسور الى امانيه واهدافه.

وفي كل هذا تتجلّى البراعة والمرونة وحسن التصرف في السلم والحرب معاً.

ومهما يكن من امر...فإن الامويين لم يناموا على الثأر، ولم يخلدوا الى الراحة، فالانتصارات التي حققها القائم بامر الله في المغرب الاقصى أقضت مضاجعهم، ونغصت عليهم عيشهم... وكنا ذكرنا أن التاريخ لم يبرىء ذمتهم من مساندتهم الثورات التي قامت بعهد هذا الخليفة الفاطمي، فخطتهم التي اعتمدوها منذ اليوم الأول تهدف الى اشغال الفاطميين في الداخل بما يمنعهم من التطلع الى ابعد من حدودهم... وخاصة الى الاندلس.

لقد ذكر التاريخ:

أن الناصر الاموي ارسل قائده «قاسم بن محمد» سنة ٣٣٣هـ الى عدوة المغرب لمحاربة الادارسة الحسنيين، واشغالهم عن مناصرة الفاطميين في حربهم الجديدة ضد «الخوارج».

وكنا ذكرنا أن الادارسة دخلوا في طاعة الفاطميين بعهد القائم بامر الله وذلك بعد القضاء على ثورة «موسى بن ابي العافية».... فاجتاز القائد الأموي قاسم بن محمد البحر ووصل الى «سبتة» حيث - اتخذها قاعدة له، وعندما علم «ابن ابي العيش» الادريسي انتابه الهلع، فأسرع اليه يعلن طاعته وولاءه، ثم اعقب ذلك ارسال ولده

« محمد » الى قرطبة ليؤكد للخليفة الاموي الناصر التزامه بالطاعة.

ويذكر التاريخ ايضاً:

أن الناصر استقبله في قصر الزهراء استقبالاً منقطع النظير، وبالغ في تكريمه، وافرد له جناحاً خاصاً في قصره للاقامة فيه، وبعد فترة قصيرة التحق به ابناء عمه امراء الادارسة فشاركوه باعلان الطاعة والولاء، وعقدوا مع الناصر معاهدة تلزمهم بالخضوع للدولة الاموية، واعلان الخطبة في بلادهم باسم الخليفة الاموي.

ومما يجب أن نذكره ايضاً:

أن الناصر الأموي حينما بلغه نبأ وفاة ابي العيش كتب الى ولده معزياً، وطلب اليه الحضور الى قرطبة لمقابلته... فذهب وهناك عقد له وخلع عليه وعلى من كان معه.... وعندما عاد من قرطبة وجد أن أبن عمه « عيسى بن قنون » قد احتوى على اهل ابي العيش بمساعدة قبيلة « كتامة ».

فجهز قوة وتوجه اليهم بحيث تمكن من الانزال بهم والاستيلاء على كل ما كان لديهم، واخيراً قتلهم جميعاً، ولم ينج منهم الاّ سبعة اشخاص تفرقوا في انحاء البلاد.

فأين كان القائم بأمر الله في هذا الوقت؟ وكيف وقف هذا الموقف اللامبالي امام هذه الهجمات الاموية التي انتزعت منه اهم جزء في دولته.

ان الجواب على هذا السؤال يتلخص:

بأن القائم بأمر الله لم يتمكن من القيام بأي رد على الهجمات المذكورة، بسبب اندلاع ثورة الخوارج التي هبّت في تلك الفترة تحرق الاخضر واليابس وتهدد دولته بالسقوط، وتقف حائلاً بينه وبين التطلع الى ابعد من حدود عاصمة دولته المهدية.

وكل هذا سنفصله في الصفحات التالية:

ثورة الخوارج:

هذه الثورة العنيفة التي قامت في بلاد المغرب ضد الفاطميين. دامت ثلاثة عشر عاماً، واحرقت الاخضر واليابس، وعرقلت كل عمل نافع كان يمكن أن يؤدي بالبلاد الى شاطىء الازدهار والأمن والحياة الافضل..وكما ذكرنا فإن هذه الثورة ارتكزت على الامويين وعلى مساعدتهم، واتخذت من الدين اساساً لثورتها.

إن هذه الثورة التي قادها « مخلّد بن كيداد » دقت ابواب المهدية اكثر من مرة، ولولا تدابير القائم بامر الله وسياسته وحسن تصرفه وصبره لكانت سقطت الدولة الفاطمية امام ذلك المد الخوارجي الذي اتسع حتى كاد يشمل شمال افريقيا... ومات القائم بامر الله، والثورة المذكورة لم تهدأ او ينطفىء اوارها، فجاء الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله وخرج على القوانين وسنة الخلفاء، وارتدى ثياب الفارس وبرز الى الساحة يقود الجيوش والكتائب، ويطارد الخوارج من مكان الى آخر حتى تمكن اخيراً من القبض على الثائر العنيد وتعليق جثته على ابواب مدينة المهدية.

إن ثورة الخوارج في المغرب ضد الخليفتين الثاني والثالث اعتبرت الاخيرة اذ بعد المنصور جاء المعز لدين الله، فتمكن من ارساء قواعد دولته في جميع بلدان المغرب، ولم يترك فرصة للامويين يستطيعون خلالها النفاذ او اثارة الثورات والعصيان.

استهلّ « مخلد بن كيداد » ابو يزيد عهده الثوري بإرسال ولده « أيوب » الى قرطبة الأندلسية للمثول بين يدي الناصر الأموي، وأخذ توجيهاته وبركاته وللاعلان عن ولاء أقطاب وأفراد الخوارج، وكان يرافقه عدد من قواد هذه الثورة، فاستقبلهم الناصر بحماس بالغ

وأحاطهم بكل رعاية وتكريم، كما أنه أنزلهم بقصره «الزهراء» وخلع عليهم... وبعد مكوث ايوب ورفقائه فترة في الأندلس عادوا مزودين بالهدايا والخلع والأموال... ومن الواضح ان هذا الوفد قد قام بمهمته بعد عدة اتصالات ومشاورات ومراسلات بين ابي يزيد والناصر، ومجملها يتعلق بالموقف الراهن، وبما يجب القيام به للإحاطة بالدولة الفاطمية.

من هو مخلد بن كيداد:

هو: «مخلد بن كيداد اليغرني».... اصله من قبيلة «زناتة» المغربية، وينتسب الى أسرة مغمورة لم يسبق لها أن ظهرت على المسرح العام، او كان لها اية فاعلية في الاوساط الاجتماعية.

أمه: جارية سوداء من قبيلة «هوارة»... تزوجها والده في بلاد النوبة ثم اتى بها الى «توزر» فولدت له «مخلد» ....الذي عرف فيما بعد باسم «ابو يزيد الخارجي» نسبة الى العقيدة الخارجية الجديدة التي اسسها ودعا اليها في اقطار افريقيا الشمالية، والتي اتبعها واستجاب اليها الالآف من الناس تحت شعار محاربة كل ما يسمى «شيعة» او «فاطمية» اينما وجدت.

ومما هو جدير بالذكر أن مخلد لم يكتسب شهرة واسعة في شبابه، كما أنه لم يظهر على مسرح الاحداث ظهوراً فعلياً الاّ عندما اعلن عن ثورته وجهز جيشه وسار على رأسه لحرب الدولة الفاطمية بعهد الخليفتين الفاطميين القائم والمنصور كما ذكرنا.

نشأ في «توزر» وتعلّم على ايدي بعض الشيوخ المالكين الذين لقنوه تعاليم الخوارج القديمة المعروفة، وهكذا ظهر يحمل التطرف والحماسة والتعطش للقتل والثأر وارتكاب المحرمات.

وتذكر المصادر التاريخية:

انه اضاف على مبادىء الخوارج افكاراً جديدة، وتعاليم غريبة تختلف بمضمونها عن مذهب الخوارج الاساسي، وتفوقها عنفاً وشدة وضراوة....فالمذهب الجديد. تدعو تعاليمه الى اعتماد مبدأ التصدي لكل ما يسمى شيعة وفاطمية. واستباحة اموالهم ودمائهم، والقضاء على خلافتهم.... مضافاً الى كل ذلك الكفر والالحاد بكافة المذاهب الدينية الاخرى، والى الايمان بالقوة وحدها، والى تطبيق مبدأ سفك الدماء وقتل كل من يشذ ويخالف الاوامر دونما اية رحمة او شفقة.

إن هذه التعاليم كانت سرية، ومقتصرة على طبقة معينة من المسؤولين، وقادة الحركة والمقربين، امّا العامة فكانت التعاليم المنبثة اليهم ترمي الى الايمان بالله، والى التمسك بأهداب الدين الاسلامي وتحريره من الدعوات الباطلة والعقائد الجديدة التي تدعو الى التفرقة.... فكان على هذه الفئة محاربتها والعمل للقضاء عليها وفي جملتها الدولة الفاطمية.

هذا ما بشّر به ابو يزيد وعمل له وحاكه بعناية، فأثبت بذلك أنه على جانب كبير من المعرفة والذكاء والمهارة باستخدام الدعاية المنظمة التي تؤثر بالجماهير وتغيّر عقولهم وتوجههم في الطريق المرسوم.

بعد أن شبّ مخلد وترعرع في توزر انتقل الى «تاهرت» فأنشأ مدرسة لتعليم الصبيان، ولكنه لم يستمر طويلاً، لأنه لم يستطع تحقيق ما تصبو اليه نفسه، فغادرها الى «نفوس» حيث اشترى مزرعة صغيرة كان يشرف بنفسه على زراعتها والعناية بها، والى جانبها فتح من جديد مدرسة لتعليم الصبيان، واتخذها في الوقت نفسه مركزاً لدعوته بحيث كان يختلف اليها العديد من الرجال والشباب لانتهال العلوم والمبادىء.... وكان مخلد يدعوهم الى الانتساب لدعوته الجديدة، والى حمل السلاح عندما يحين الوقت، والانطلاقة الى الاقاليم لتحريرها من الفاطميين الدخلاء الكافرين، ومن ثم اقامة دولة «الخوارج» الكبرى

التي رسم حدودها ورقعتها بحيث تشمل كل افريقيا الشمالية.

بعد اقامة امتدت بضعة اعوام تمكن مخلد من غرس بذور ثورته في عقول اكثر الشباب غادرها الى منطقة جبال «اوراس» وهناك اخذ يبث تعاليمه داعياً الى حمل السلاح، والالتحاق بجيشه....فاستجابت له الالآف المؤلفة من الرجال، وعاهدوه ودخلوا في طاعته واطلقوا عليه اسم «شيخ المؤمنين» وبعضهم كان يناديه «بـ» «صاحب الحمار»... لأنه كان يركب حماراً في رحلاته وتنقلاته بين المدن والقرى، عندما يكون في صدد الدعاية والتبشير بدعوته.

مما يجب أن نشير اليه... أنه في تلك الفترة وصلت دعوة مخلد الى قمة النجاح وخاصة بعد أن انضم اليها العلماء والفقهاء وبعض رؤساء القبائل الذين هرعوا للتبرك منه ونيل بركاته ومنحه الثقة والمبايعة... وبعد أن وثق من قوته، ومن كفاءة جيوشه زحف الى «القيروان» كمرحلة اولى.... فدخلها دون قتال وخطب في مساجدها وبشر اهلها باليمن والخير والسعادة، وبحياة افضل، ثم دعاهم الى مذهبه، والى التطوع في جيشه لمحاربة الفاطميين الدخلاء.

في تلك الفترة كان القائم بامر الله مشغولاً في مهمات اخرى.... كتوطيد الامن والاستقرار في المغربين الاقصى والأوسط، مضافاً الى ذلك ملاحقة العصابات الزناتية التي توزعت في كل مكان من انحاء الدولة تزرع الخوف والرعب في المناطق والامصار. وقد ذكرنا كل ما يتعلق بثورة ابن العافية والخرز الزناتي، وما نجم عنها من دمار وخراب واشاعة الفوضى.

ومهما يكن من امر.... فعندما اعلن ابو يزيد عن قيام ثورته، وعندما قرر الزحف الى القيروان، اسرع - الناس الى الانضمام الى جيشه والسير وراءه بحماس شديد وباندفاع عجيب، وخاصة البربر والزناتيين الذين رأوا فيه منقذاً ارسله الله لانقاذهم من هؤلاء الدخلاء

الغرباء، أو الغزاة الاجانب، الذين جاءوا من المشرق تحت شعار التحكم بالناس واستعبادهم والانتقاع من بلدانهم.

وفي القيروان اعطى مخلد اوامره بضرورة الانكشاف عن المدينة والمرابطة على ابوابها من الخارج وأرسل دعاته الى قلب المدينة حيث اخذوا يحرضون السكان على الاقتتال والتنابذ... هؤلاء كانوا ينتمون الى فئاتٍ مختلفة متضادة، لا يجمعها اي رباط ديني او اجتماعي، فنشب بينهم قتال مرير، وسفكت الدماء غزيرة، وكان مخلد خارج المدينة يراقب الموقف ويعلن براءته من كل ما يجري في المدينة... اذ ان اهدافه كانت ترمي الى اشعال النار... وبالوقت نفسه التنصّل من كل تهمة... ولكي لا تلصق به أية سمعة مشينة، او مسؤولية بادر الى اعطاء اوامره الى جيشه بالتدخل لفك القتال واعادة المياه الى مجاريها، فاكتسب بذلك ثقة الجميع واعتبروه حكماً فاضلاً، ومنقذاً كبيراً.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة في مختلف الميادين السياسية والعسكرية، وبعد أن تم له الاستيلاء على مساحات كبيرة من الاراضي... عاد الى منطقة «نفوس» في المغرب الاقصى، واخذ يتنقل بين قبائل البربر... ولما لم يجد هناك اية استجابة لدعوته، والالتحاق بجيوشه، وخاصة لدى قبيلة «كتامة» شنّ عليها هجوماً كاسحاً، فتمكن منذ الجولة الاولى من الايقاع بها والتنكيل بافرادها وقتل الابرياء من رجالها.... ومن الجدير بالذكر:

أن هذه القبيلة المحاربة لم تستطع الوقوف بوجه قوة مخلد الغازية التي اعتمدت اساليب الاجتياح السريع في حربها، وبعد أن فرغ من حرب كتامة استولى على بجاية ومرمحنة ثم دخل سبتة واستولى على الاربس.

ويذكر التاريخ:

انه كان ينهب المدن ويقتل الناس دونما رحمة او شفقة، كما اباح

لجنده حرية التصرف بالغنائم والاسلاب دون اية رقابة..وهـذا ما جعل القبائل البربرية تسرع الى الانضمام الى جيشه سعياً وراء المكاسب، وطلباً للغنائم.

وفي تلك اللحظات الحاسمة أمر القائم بأمر الله قائده «ميسور» بتجهيز حملة قوية للتصدي للثائر الجديد.... فاستجاب ميسور للطلب وخفّ الى لقاء أبي يزيد، وبدأ القتال بين الجيشين عنيفاً وسجالاً واستمر ما يقارب من العامين... ولكن في المعركة الاخيرة المعروفة بمعركة «وادي الملح» وكان مخلد قد استقدم قوات جديدة وانزلها الى الميادين... في هذه المعركة قتل ميسور وتعرض الجيش الفاطمي لأكبر هزيمة، اذ لم يسلم منه الااعـداداً قليلة شردت في البراري والقفار، وبعضها تمكن من الالتحاق بالمهدية.

بعد هذه المعركة زحف مخلد باتجاه المهدية، فرابط على مقربة منها... وهنا خاف سكانها على انفسهم من اجتياح الخوارج خاصة وقد نمي اليهم ما يفعله هذا الجيش بالمدن وبسكانها عندما يدخلها، فجاءوا الى القائم بأمر الله وطلبوا منه الاذن لهم بالخروج منها، فلبىّ طلبهم، وأرسل عائلته الى صقلية... ومن الجدير بالذكر ان اهالي مدينة المهدية ذهبوا في ذلك الوقت الى طرابلس الغرب وبعضهم الى مصر... وقد ذكر: أنه لم يبق في العاصمة الاّ حامية للدفاع عنها وقد تولى القائم بامر الله قيادتها بنفسه.

هذه الاحداث بالرغم من عنفها لم ترهب القائم بامر الله، أو تجعله يستكين الى اليأس، ولكنه ادرك ان مملكته اصبحت في مهب الرياح، حتى حياته اصبحت مهددة... فهذه القوى الغاشمة المندفعة لا يمكن لأية قوة الوقوف بوجهها او منع تقدمها.... كيف لا وقد وصلت طلائعها الى المهدية، وهي في صدد الدخول اليها وتصفية الحساب مع حاميتها... وهاهم سكانها قد دب الذعر في قلوبهم. فهرعوا الى الخروج

فراراً من الموت، ولم تجد الحملات التي جندها القائم بامر الله لايقاف هذا الزحف اية نتيجة، ومن جهة اخرى فلم يعد بمقدور القائم وهو في عاصمته تأليف جيش كامل يمكن الاعتماد عليه للوقوف بوجه الخطر الداهم....فهذا الجيش قد تفرق شمله وقتل قائده، وابيدت كتائبه في المعارك الاخيرة التي خاضها امس.

وخطرت للقائم بامر الله وهو في هذا الموقف الاخير، فكرة الاستنجاد بـ« صنهاجة » القبيلة التي تمكن من عقد راية الصلح معها... فهي من القبائل المحاربة المرهوبة الجانب التي تعب القائم بامر الله وبذل كافة جهوده حتى تمكن من جعلها بمتناول يده... في تلك الساعات الرهيبة كتب كتاباً الى « زيري بن مناد » يصف له ما وصلت الاحوال اليه من التدهور والاخطار، ويدعوه الى الاسراع بالقدوم لانقاذ الموقف قبل أن تحل الكارثة الكبرى التي قد ينعكس شرها عليه وعلى قبيلته في نهاية المطاف... وفي الوقت نفسه.... أي في اليأس، وفقدان الامل كان يخرج بنفسه على رأس الحامية لاشغال الخوارج، وكسب الوقت... حتى انه تمكن من اجبار ابي يزيد على التراجع الى مدينة القيروان.

وصل كتاب « القائم بامر الله » الى « زيري بن مناد » فهب من ساعته، ونفخ في بوق الحرب، وأمر جيشه بالاستعداد ثم زحف الى منطقة كتامه، ودعاها الى الالتحاق به، وبين عشية بضعة ايام وضحاها وصلت طلائع قواته الى المهدية، فالتقى بالقائم بامر الله، ووضع معه خطة الحرب، ولم يلبث ان غادرها الى القيروان حيث بدأ حربه بتوجيه انذار الى ابي يزيد يدعوه الى الاستسلام... ولما لم يجبه بادره بالقتال، فدارت رحى المعارك الطاحنة بين الفريقين مما لم يشهد المغرب لها مثيلاً في تاريخه.

وبعد سلسلة من المعارك... ادرك ابو يزيد بأن الخلل قد بدأ يتسرب الى قلب جيوشه امام الضربات الموجعة التي كالها له زيري بن

مناد، هذا فضلاً عن أن بعض جنود أبي يزيد قد ادركوا سوء العاقبة. وانهم انما يحاربون تنفيذاً لغايات شيطانية، لا خير منها للمجتمع ولا للوطن، وقد كان للدعاة الفاطميين الذين انبثوا في صفوف جيوش الخوارج التأثير الكبير على عقول الجند، وهكذا تمكن من ادخال الشك الى قلوبهم، وافساد الخطط وتبيان سوء المقصد... وكل هذا أوجد مناخاً طيباً لزيري بن مناد وجنوده على ارض المعركة، وافسح المجال لبعض المقاتلين من جيش ابي يزيد بالاعتزال والالتحاق ببلدانهم وللبعض - الآخر وهم اكثر حماسة بالانضواء تحت راية الفاطميين، ولم يبق مع مخلد سوى قبيلتين هما: «هواره» و«بني كملان».

ولم تهدأ المعارك او تتوقف لحظة واحدة بالرغم مما اصاب ابا يزيد... ولكنه اخيراً اضطر امام الضغوط الى الدخول الى القيروان وكان قصده الاعتصام بها... فتبعه زيري وضيق عليه الحصار مما جعله يركن الى الفرار نحو الصحراء، بعد أن فقد كل امل بالنصر... وقد ذكر بأن عدداً كبيرة من جيشه المنهزم هلكوا جوعاً وعطشاً في الصحراء.

الى هنا.... وتنتهي مغامرة أبي يزيد الخارجي الاولى في عهد القائم بأمر الله.... هذه المغامرة التي كادت تودي بالدولة الفاطمية لولا سيوف صنهاجة وكتامة التي ساهمت في القتال عن ايمان وعقيدة فقدمت خيرة رجالها ومقاتليها في اصعب حرب ليكونوا ضحايا في سبيل الدولة التي اخذت على عاتقها قيادتهم وايصالهم الى الحياة الافضل.

ان حرب الخوارج تلك كانت حرباً شعواء خاضتها الجيوش الفاطمية وهي تدرك بانها حرب الحياة او الموت فلا هدنة ولا سلام مع الخوارج الذين اتخذوا من الدين شعاراً لهم للتضليل وافساد العقول. ومن الواضح ان مخلد بن كيداد سار على خطى «موسى بن ابي العافية» عندما اعطى اوامره لجنوده بقتل الآمنين وتدمير القرى والمدن والفتك

بالشيوخ والنساء والاطفال، واستباحة المحرمات...وكل هذا جعل الناس يكفرون بدعوته الدينية ويقرون بطلان هذه الدعوة التي تقوم على سفك الدماء دون ان يكون في قلوب المسؤولين عنها اية رحمة.... وهكذا امتلأت القلوب حنقاً - وغيظاً عليهم.

ومهما يكن من امر....فإن الخارجي ابن كيداد لم يتوقف عند حد محدود بعد هزيمته المنكرة - ... فإننا نراه يعيد الكرة بعد وفاة القائم بامر الله، فيشنها حرباً شعواء من جديد... ولكن الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله، وقف بوجهه بشجاعة، وقاد الجيوش الفاطمية بنفسه مدة زادت على الخمسة اعوام حتى تمكن في نهاية المطاف من القبض على رأس الحركة ثم اعدامه... وسوف نذكر ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية:

أحداث وتحركات في عهد القائم بامر الله

كنا ذكرنا في أكثر من مكان من كتبنا وبحوثنا:...بأن الفاطميين قد خططوا وقرروا منذ اول يوم وطئت فيه اقدامهم ارض المغرب، بل من ساعة اعلنوا فيها عن قيام دولتهم، بضرورة بسط سيادتهم على البحر الابيض المتوسط، واتخاذه بحيرة لهم يسرحون ويمرحون فيها بسفنهم وأسطولهم... ولعل هذه الاحلام راودت جفونهم منذ ان درسوا اوضاع المنطقة التي حكموها وعلاقتها بالدول المجاورة لهم.

وانه لمن الواضح بمكان انهم كانوا يقدرون اهمية البحر بالنسبة للدول، وما تؤديه الاساطيل في الحروب... ومن جهة اخرى فإن وجودهم على مقربة من بلاد الروم، وكونهم في صراع مستمر مع هذه الدولة التي لا تبرح تحيك المؤامرات وتقيم العراقيل بوجه كل دولة عربية او اسلامية اذالم ترضخ اليها، وتنحني مام قوتها وجبروتها..... كل هذا حفز بهم الى الاسراع باقامة الموانىء البحرية وتحصينها واعدادها لاستيعاب السفن الحربية وتجهيزها للانطلاق وللمراقبة وللدفاع، وأهم

هذه الموانىء «صقلية». فحرصوا عليها اشد الحرص، وبذلوا كل غالٍ ونفيس في سبيل الابقاء عليها ضمن ممتلكاتهم، كما بنوا المهدية الى جانبها وجعلوها القاعدة الثانية للدفاع عن الدولة ضد الغزوات والثورات سواء الداخلية او الخارجية.

وتدل الدلائل... أنهم عندما وجدوا اسطولهم الذي ورثوه من دولة «الاغالبة» غير كافٍ لسد الحاجات المطلوبة، استقدموا الخبراء من كل مكان، واستكملوا المواد، وزادوا من عدد قطع اسطولهم حيث بلغ في عهد القائم بأمر الله مئتي سفينة وقيل اكثر...فكان اقوى اسطول بحري عرفته دولة عربية او اسلامية في تلك الايام بما في ذلك الاندلس التي كانت تفاخر باسطولها.

ومهما يكن من أمر.... فإن القائم بامر الله رغم الثورات الدامية التي اندلعت بعهده، ورغم ثورة الخوارج التي زعزعت اركان دولته، فإنه لم يقف مكتوف الايدي امام تحركات الروم، فشنّ عليهم الهجمات في عقر دارهم، وجعلهم في كافة الاحوال تحت رحمته.

فقد ذكر التاريخ:

انه في سنة ٣٢٣هـ ارسل حملة بحرية من صقلية الى جنوا، فاستولوا عليها، ثم انتقلوا الى «سردينيا» فدمروا اسطول الروم الراسي فيها، وهذا الاسطول كان قد تحرك لمقاومة الغزو، كما غنموا عدداً من السفن وضموها الى الاسطول الفاطمي، ومن هناك توجهوا الى «قرسقة» حيث حاصروها ودخلوها بعد ذلك، وبعد أن استقروا فيها فترة قصيرة عادوا الى صقلية.

ومماً تجدر الاشارة اليه أن «أمير البحر» في صقلية كان لديه امراً من القائم بامر الله يلزمه بالبقاء في حالة حرب مع الروم.

في المشرق

دعاة الفاطميين في المشرق لم يهدأوا يوماً من الأيام، أو يتوقفوا عن العمل في المجال الدعائي والفكري الذي يحمل اسم الدين ويختفي تحت ستار السياسة.

فبالأمس كان هؤلاء الدعاة يتلقون الاوامر والتوجيهات من مركز الدعوة في «سلمية – سورية» واليوم اصبحوا يتلقونها من المهدية ومن قصر الخلافة الفاطمية مباشرة، وبالرغم من بعد المسافات فإن التبشير والدعاية لم تتغير بالمضمون، وإن كان قد طرأ عليها تغيير بالشكل والمظهر، فالدعاة كانوا في الاقاليم المخصصة لنشاطاتهم يحققون في كل يوم تقدماً وانتصاراً فيقيمون المراكز السرية والخلايا ويستقطبون المستجيبين والانصار مفسحين لها مجال العمل في دعوتهم والمشاركة في كل ما من شأنه الوصول الى الاهداف.

ومن الجلي الواضح أن «نصر بن احمد الساماني» أمير خرسان في ذلك الوقت قد استجاب لهم ودخل في دعوتهم، وحَوّل دولته الى مستعمرة فاطمية في كل ما في هذه الكلمة من معنى.... يدلنا على ذلك الكتاب الذي ارسله الى القائم بامر الله عندما كان يخوض الحرب مع الخوارج... وقد جاء فيه:

«انا في خمسين الف مملوك يطيعونني... وليس على الامام القائم بامر الله بهم كلفة ولا موؤنة، فإن امرني بالمسير سرت اليه، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه، ممتثلاً لأمره».

وهكذا فعل «مرداويج بن زياد الديلمي» احد القواد الذين خلعوا «الاصفر» امير قزوين عن العرش، واستولى على الري واصبهان... فهذا القائد ارسل الى القائم بامر الله الهدايا والاموال الكثيرة «الزكاة» معلناً عن رغبته بالقدوم الى المغرب، والمساهمة بالفتح، وتوطيد اركان الدولة الفاطمية، ويدخل في عداد هؤلاء الامراء

«يوسف بن ابي الساج» فقد أرسل هذا الاخير الى القائم بامر الله الرسل والهدايا واموال الزكاة معلناً عن طاعته واستعداده للاشتراك بالحروب وفتح البلدان والامصار.

من هنا... نستطيع التأكيد بأن الفاطميين لم يغمضوا اعينهم عن المشرق... بل على العكس اولوه اهتمامهم لانهم كانوا يعتقدون بأنه لا بد لهم من توسيع رقعة دولتهم... وأن هذه القطعة المغربية في شمالي افريقيا لا تعوضهم عن المشرق الذي هو بالنسبة اليهم مهوى الافئدة، ومناط الآمال، ومثوى الاجداد... ولكن اوضاع المغرب وما يفرضه عليهم الواقع العام كان يحتم عليهم اتخاذ موقف التريث وانتظار سنوح الفرصة.

عودة الى الديار المصرية:

من الثابت أن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله لم تساعده الظروف على إرسال أية حملة الى الديار المصرية للاستيلاء عليها... فقد مّر معنا أن الحملة التي ارسلها الى «برقة» بقيادة القائد الكتامي «ميسور الفتى» لم تكن الاّ لاجل التهديد والمراقبة وتسهيل مهمة الدعاة والانتظار حتى يصبح بالامكان اتباعها بحملة اخرى تنضم اليها وتتعاون معها في اعمال الفتح والاستيلاء، ولكن القائم بامر الله اضطر الى استعادتها عندما عصفت العواصف بدولته واندلعت الثورات في كل مكان منذرة مهددة.

وليس غريباً أن يفكر القائم بامر الله باحتلال مصر وضمها الى دولته او اتخاذها قاعدة له، فقد سبق له يوم كان ولياً للعهد بعهد الخليفة الاول عبيد الله المهدي أن قاد واشترك بالحملات الثلاث التي هاجمت مصر ولم تنجح أو تستطيع تحقيق اية انتصارات لأسباب ذكرناها في كتبنا وبحوثنا عن الفاطميين... فهذه الحملات الثلاث لا يزال ذكرها يخطر في بال القائم بامر الله، ويأخذ عليه كل اوقاته...

ولكن ما العمل؟ وهذه الثورات لم تفسح له أي مجال للتفكير الى ابعد من عاصمة دولته، مضافاً الى كل ذلك حالة الدولة الاقتصادية وعجزها المالي ووقوعها تحت ما يسمى بالافلاس، فتلك الحروب جعلت خزائنها تنوء تحت ثقل الحاجة، ولولا الاموال الطائلة التي كانت تتدفق عليها من المشرق، لما استطاع القائم بامر الله الوقوف على رجليه والاستمرار او الثبات امام العواصف الهوجاء التي هبت تقتلع كل شيء امامها...لقد كان عليه أن يجد الاموال بين يديه لتمويل الجيوش التي تذهب الى محاربة الثوار والعصاة، وتوفير السلاح والعتاد والغذاء والمعاش لها، فهؤلاء الثوار من جهتهم كانوا يرتكزون على دولة غنية فتحت لهم ابواب خزائنها ومولتهم بسخاء، وامام هذه الاحوال كان عليه أن يسد كل نقص يطرأ على جيوشه، مما لا يفسح المجال أمام احد للحديث او الانتقاد.

وكل هذا لم يكن ليحول دون تطلعه الى الديار المصرية...وهذا التطلع قد اتخذ وجهاً اخر هذه المرة فبدل الحرب والسيف استخدم السياسة والمسالمة والاتصالات...وهو يعتقد بأن موقفه الراهن وأوضاع دولته تقضي بذلك فكثيراً ما تفعل السياسة اكثر من الحرب.

من الواضح ... أنه كان يحكم مصر في ذلك العهد «محمد بن الاخشيد» وكان مرتبطاً شكلياً بالدولة العباسية يمنحها حق اقامة الخطبة باسم خليفتها في المساجد، والرجوع اليه في بعض القضايا العليا... وقد ذكر بإن محمد هذا كانت له ميول فاطمية وكان يبدي للمقربين منه عطفه الخاص على الفاطميين مشيداً بهم وبسلوكهم وطريقة حكمهم.... فوصلت هذه الاقوال الى القائم بامر فما من كان منه الاّ أن اتخذها اداة للتقرب واقامة علاقات من الود والصداقة، يدلنا على ذلك المحاولات التي بذلت لعقد قران القائم بامر الله على احدى بنات الاخشيد، وهذا المشروع فشل لأسباب لم تكشف عنها المصادر

التاريخية، ويعزّز هذا القول ايضاً الكتاب السري الذي ارسله القائم بامر الله الى الاخشيد والذي يعلن عن رغبته بالتقرب منه والتعاون في سبيل المصلحة العامة.

ويبدو أن العباسيين علموا به، وبالمساعي التي تبذل للتقريب بين الاسرتين فاتخذوا الاجراءات السريعة للقضاء على هذه المحاولات ومنها ارسال القائد «محمد بن رائف» الى مصر للاقامة فيها والقضاء على كافة التحركات المشبوهة... وعندما وصل اعتبر الاخشيد ان هذا تدخلاً في شؤونه الداخلية، وأنه سابقة خطيرة لا يجوز السكوت عليها، فأعلن على الفور الثورة على الدولة العباسية، وامر بقطع الخطبة عن الخلفاء العباسيين في كافة مساجد مصر والاستعاضة عنهم بالخليفة الفاطمي القائم بامر الله.

هذه الانتفاضة السلمية القاصمة زعزعت اركان الدولة العباسية، ولم يستطع الخليفة الرد عليها الاّ باللين والمجاملة، لأن اوضاع دولتهم لم تكن في حالة جيدة تسمح لهم باستعمال القوة او ارسال جيوش الى مصر للمرابطة فيها او خوض معارك مع الاخشيديين الذين كانوا يمتلكون جيشاً قوياً.

فأغدقوا الاموال والمساعدات على الاخشيد واعلنوا ندمهم على ما فعلوه، وبالوقت ذاته منحوه صلاحيات الحكم المطلق والتصرف في كل ما يراه مناسباً.... وعندئذٍ عادت المياه الى مجاريها، ورجعت مصر الى سابق عهدها.

وقد يكون من المفيد اثبات كتاب القائم بأمر الله الذي ارسله الى الاخشيد بصورة سرية ودون أن يدع احد يشعر به من كتابه ومستشاريه:

«قد خاطبتك في كتابي هذا، وفي هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين، وبما جرى به الرسم من انصار يستجلبون، وضمنت رقعتي ما لم

يطلع عليه احد من كتابي، او ذوي المكانة عندي.... وارجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما ادعوك اليه.

فقد شهد الله على ميلي اليك، وايثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني، واحتوى عليه ملكي، وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن اجابتي لانك قد استغرقت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك... يخلفون وعدك... ويخفرون ذمتك... فلا تعتقد من أحد حسن المكافأة، ولا جميل المجازاة، وليس لك أن تعدل عن منهج نصحك، وايثار من اثرك الى من يجهل موضعك، ويضيع حسن سعيك، ....فأنا اعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم... فإن لم تجد من نفسك معونة عن اتباع الحق، ولزوم الصدق... فإنني ارضى منك بالمودة والامر والطاعة حتى تقيمني مقام رئيس من اهلك تسكن اليه في امرك، وتعوّل عليه بمثل ذلك.... واذا تدبرت هذا الامر علمت أن الذي يحملني على التطأطىء لك وقبول الميسور منك...انما هو الرغبة فيك، وأنت حقيق بحسن مجازاتي على ما بذلته....والله يريك حسن الاختيار في جميع امرك، وهو حسبنا ونعم الوكيل ».

لا نتوقف عند هذا الكتاب الذي اظهر القائم فيه انه متفوق في مجال الادب والبيان ينتقي الكلمة الجيدة، والعبارة الانيقة.... بل لا نريد أن نتوقف عن الحديث عن هذا الخليفة العظيم الذي نعتبر تاريخه سلسلة من الجهاد والنضال، وحياته صفحة كاملة من الرجولة والاقدام، وأنه لما يحز في النفس انه عاش خمسة وخمسين عاماً لم يعرف في خلالها الراحة سواء في المشرق والمغرب... فالسنين التي قضاها في المغرب وهو ولي للعهد تعتبر من اصعب السنين ويكفي ان يكون قد قام في خلالها بقيادة جيوش الدولة وهي في طور التأسيس، أما في فترة خلافته فقد مرّ معنا ما تعرض له من هجمات وثورات وانتفاضات اندلعت في اوقات

مختلفة وجاءت اخيراً لتدق ابواب عاصمة ملكه.

ومن المؤسف انه مات وجيوش ابن كيداد الخارجي على مقربة من عاصمة دولته المهدية، وكأني به قد ترك امر القضاء عليها لابنه المنصور بالله الشاب المتحمس الذي كان في سن الثانية والثلاثين، والذي كان على جانب عظيم من الثقافة والمقدرة والاقدام والفروسية والذي اشتهر بالقضاء على ثورة الخوارج وقتل قائدها الكبير ابن كيداد.

القرامطة في عهد القائم بامر الله:

لا ادري ماذا عليّ أن أقول...؟ وأنا حيال موضوع كنت قد عاهدت نفسي أن لا اعود الى الكتابة عنه الاّ مضطراً، بعد ما رأيت وسمعت وقرأت ما كتبه عنه بعض الكتاب وتجار الادب من مزاعم وحكايا وأساطير هي بجملتها من وحي التعصب الديني الذميم الموروث، أو من الهام الانتماءات الحزبية التي برزت للعيان وفي ايديها معول هدم تاريخنا وحضارتنا القديمة والحديثة.

لقد كتبنا الكثير عن القرامطة، وليس من قبيل الفخر والاعتزاز اذا ما قلنا: أن أول دراسة عربية صدرت عن هذه الحركة... الدراسة التي قدمناها في عام سنة ١٩٦٥. ولكن مع كل أسف لم نسلم من السن المتعصبين والمتزمتين الذين قلما تخلو منهم زاوية من الزوايا في هذا الوطن العربي.... كما أننا لم نسلم من انتقاد الفئات الاخرى التقدمية المتطرفة التي ارادت وتريد أن تطبع كل حركة او ثورة قديمة أو حديثة في هذا الوطن بطابعها، وكأنها خجلت من أن تقول بأن حركة القرامطة لم تقم الاّ لتحقيق الفكرة التي تعتنقها والمبدأ الذي تسجد له.

أجل...لا ادري ماذا عليّ أن اقول....؟ وأنا في موقف يقضي

علي ان لا اتقاعس ولا اتراجع عن مبـدأ اعتقدت بصوابه، وبأنه نابع من الحقيقة، فبعد كل هذا صار لزاماً عليّ ان لا ابالي بالاقوال والتهم ما دام في ضميري شعور يهدف الى المحبة والالفة والتسامح، والابتعاد عن كل ما يثير الخواطر ويسيء الى المجتمع والأمة.

فالحركة القرمطية «وصاحب البيت ادرى بالذي فيه».... بدأت أول ما بدأت كحركة فكرية انسانية تستند الى نظام وقانون يقضي بازالة الفساد والحكم المتجبر واقامة صرح العدالة والحرية والمساواة والاشتراكية الصحيحة – بين عموم طبقات الشعب تحت كل دولة «اهل الخير» التي ذكرها «اخوان الصفاء» برسائلهم، وعملوا لها، وجعلوها اساساً لنظامهم الفكري.

ولكن هذه الحركة التي انبثقت من «الاسماعيلية» ثم لم تلبث أن انشقت عنها وانقلبت عليها وسارت في طرق اخرى بعيدة وسط تيارات كانت تتقاذفها ذات اليمين والشمال.... هذه الحركة لم تعد لها أية ارتباطات بالدعوة الرئيسية – وفقدت كل انتماء، واصبحت مستقلة بآرائها ومنفردة بتصرفاتها.

وأنه لمن الغريب بعد كل ما حصل ... ان يتعمد بعض المؤرخين والكتاب سواء القدماء أو المعاصرين فيلصقوا كل ما اقترفته هذه الفرقة من اعمال «بالاسماعيلية» ... وكأني بهم لم يقرأوا التاريخ، او يقفوا على المصادر التي اشارت الى هذه الحقائق.

فالقرامطة بعد أن وقع ما وقع بينهم وبين مركز الدعوة الفاطمية في بلدة سلمية – سورية من اختلاف تحولوا الى لعبة بيد العباسيين يوجهونها كيفما يشاءون، او بلغة اصح اصبحوا يحملون شعار الحرب ضد الفاطميين اينما وجدوا ... وعندما نقول ذلك ندعم قولنا بالهجوم الذي شنوه على بلدة سلمية يوم عبثوا وقتلوا ودمروا كل كائن حي فيها، بما في ذلك الاسرة – الفاطمية من اولاد «محمد بن اسماعيل بن جعفر

الصادق » وكان عددهم /٨٣/شخصا بين رجل وامرأة وطفل، وقد وقع هذا بعد فرار « عبيد الله المهدي » و« القائم بامر الله» الى افريقيا الشمالية ....فهل يصح بعد هذا أن نلصق هذه الجريمة بالفاطميين، او نعتبرهم المسؤولين عن كل ما فعله القرامطة؟

هذا اذا استثنينا حروبهم مع الفاطميين في بلاد الشام وفلسطين، واغتيالهم القائد الفاطمي « جعفر بن فلاح » وزحفهم الى مصر مرتين بغية احتلالها ونزع سلطة الفاطميين عنها، وما رافق ذلك من معارك وسفك دماء.

ولا بد من العودة الى التاريخ بعد هذه المقدمة فنقول:

أن القرامطة فرقة من الاسماعيلية، اتخذت هذا الاسم عندما انتسب اليها « حمدان بن الاشعث - قرمط » أو بالأحرى عندما عهد اليه الاضطلاع برئآستها ومسؤولياتها في منطقة « السواد » فهذه الجماعة قبل حمدان لم تكن تتسمى بهذا الاسم ولا شك انها كانت موجودة في كل مكان من العالم العربي والاسلامي، أي منذ أن بدأت الدعوة الاسماعيلية تقوم باعمالها الدعائية في سلمية وكان ذلك بعهد عبد الله بن محمد بن اسماعيل اي قبل قرمط بخمسين عاماً.

وقد يكون من الحقائق التاريخية ...أن القرامطة اتباع قرمط ظلوا على ولائهم وطاعتهم للدعوة في سلمية ولم يفكروا بالخروج في عهد حمدان او عبدان ... انما الخروج هذا وقع بعد مقتل حمدان وصهره عبدان بأيدي « زكرويه بن مهرويه » وبعض اتباعه لانهم كانوا يعتبرونهما عقبة في سبيل زعامتهم.

وكنا فصلنا في مقالات وبحوث عديدة: بأن الأئمة الفاطميين من ولد « محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، كانوا يعيشون في « سلمية - سورية » باسماء مستعارة وبسرية تامة حتى عن اقرب المقربين اليهم

وذلك خوفاً من سيوف العباسيين التي كانت مسلطة على رقاب كل من ينتسب الى علي بن ابي طالب، فكانوا يعرفون «بالقداّحيين» نسبة الى محمد بن اسماعيل الذي نزل «تدمر - سورية» وسمى نفسه «قداح» أي طبيب العيون، وكانوا يبشرون بامام منتظر من ولد محمد بن اسماعيل قائلين عن انفسهم بأنهم دعاة اناط الله بهم مهمة التبشير بقرب ظهور هذا الامام الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلما.

ولكن عندما ظهر «عبيد الله المهدي» على مسرح الاحداث، وتسلّم شؤون الامامة «استيداعاً» اي وكالة عن الامام الأصيل «القائم بامر الله» وعندما اعلن ذلك على الملأ اسقط بأيدي قرامطة السواد وعلى راسهم زكرويه بن مهرويه، واعتقدوا بأن الدعوة باطلة من أساسها، وأن ادعاء عبيد الله المهدي ليس له ما يبرره... وكان عبيد الله من جهة قد اتخذ قراراً باقصاء زكرويه عن الزعامة بعد اتهامه بمقتل حمدان وعبدان.

من هنا ... انطلقت شرارة الحرب ... بل من هذه النقطة انبعث الانقسام ثم تطور فيما بعد ليتخذ ابعاداً اخرى. ولكن لا بد من القول، بأن هذا الانقلاب الخطير لم يصل الى حد ترك العقيدة الدينية، فهذه العقيدة ظلت في مكانها، وظلّ للفاطميين العديد بل الآلاف من الاتباع، وهؤلاء التزموا جانب الصمت «والتقية» ولم يستطيعوا مجابهة - الفريق المتطرف الذي تولّى الحكم.

انني عندما أكون في صدد التحدث عن القرامطة، فلا افرق بين قرامطة السواد، او قرامطة الاحساء أو البحرين أو العراق او بلاد الشام، فالقرامطة هم فرقة واحدة حافظت رغم الظروف والاحداث على الدين، وقد يكون جرى بينهم بعض الاختلافات السياسية والجانبية مما لا يصح معها أن نسميها تفرقة او نعزلها عن بعضها البعض.

فبعد قيام الدولة الفاطمية في شمالي افريقيا، كانت الفئة الحاكمة

المسيطرة على القرامطة في البحرين هي من «آل الجنابي»، فكانت على اتصال بالفاطميين يعترفون بامامتهم ويؤدون اليهم اموال «الزكاة» ويرجعون اليهم في الامور العليا. يدلنا على ذلك اوامر عبيد الله المهدي اليهم والتي يأمرهم فيها بارجاع الحجر الاسود الى مقره والامتناع عن التعرّض للحجاّج المسلمين، واعادة كل ما نهب من البيت الحرام.

وبعد أن قام الفريق المتطرف من هذه الاسرة وتسلّم الحكم انضوى تحت لواء العباسيين والحمدانيين واصبح اداة في ايديهم ينفذون بها مآربهم ويوجهونها الى محاربة الفاطميين وافساد خططهم في الشام وفلسطين، واخيراً مهاجمتهم في عقر عاصمة ملكهم القاهرة وذلك بعهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله.

هذه لمحة عابرة موجزة عن القرامطة رأينا أن نعرض لها ونحن في صدد التحدث عن تاريخ الخليفة الفاطمي الثاني القائم بامر الله، وهدفنا اثبات حقيقة تاريخية ودحض الاقاويل والاساطير والحكايات التي رواها ويرويها بعض الكتاب بصور واشكال مختلفة.

نحن نقول ... بل نحن مع القائلين:

بأن القرامطة في حروبهم ارتكبوا اعمالاً شائنة .... دمروا مدناً ... واحرقوا منازلاً وقتلوا الابرياء، واستباحوا الحرمات، وكانوا قساة لدرجة انهم تطاولوا وأوقعوا الاذى بالحجيج في المسجد الحرام، وقتلوا «ابن منجب» امير مكة، وقلعوا الحجر الاسود وجاءوا به الى هجر، وسلبوا البيت الحرام. وطرحوا جثث القتلى في بئر زمزم ... وقد سبق ان قلنا: انهم قتلوا الاسرة الفاطمية في سلمية- سورية وعدد افرادها /٨٣/ بين شيخ وطفل وامرأة ورموا بجثثهم في أحد الآبار دونما شفقة او رحمة. فهل هذه الاعمال جرت بوحي من الفاطميين؟ وهل يصح أن ندرجهم في عداد اتباعهم ومريديهم؟

يقول دعاة الاشتراكية:

أن القرامطة طبقوا مبادىء الاشتراكية، ونادوا بها، وعملوا لها، ومن هذه الجهة يعتبرون اول فرقة نادت بالاشتراكية ....

هذا القول لا يختلف عليه اثنان ... فمبادىء الاشتراكية لم تكن من ابداع القرامطة، ومن الجهل بالتاريخ أن نخص القرامطة بها وحدهم ...فهذه المبادىء قديمة وأصيلة سنها وبشر بها الفاطميون منذ أن اسسوا دعوتهم في سلمية – سورية أي قبل أن يبرز اسم القرامطة على المسرح ... فالحرية والعدالة والمساواه بين كافة الطبقات، والتخطيط لاقامة مجتمع صالح ودولة عادلة واشتراكية صحيحة بالاضافة الى تغيير الانظمة السائدة كل هذا مهد له الفاطميـون، وجاء القرامطة فأخذوه عنهم، ولكنهم طبقوه قبل نضوجه وقبل أن يستكمل عناصره، فكان أن وقعوا بالاخطاء، وتعرضوا في خاتمة المطاف للفشل.

من الطبيعي ... أن كل حركة او ثورة لا بدلها من أن تتعرض الى انتفاضات داخلية، وانشقاقات ربما ادت في النتيجة الى فشلها وتفرقها ... ففي كل حركة توجد طبقة متحمسة ومتطرفة، وبالمقابل توجد حركة معتدلة، ولكن في اغلب الاحيان تكون الغلبة لفرقة المتطرفين فكثيراً ما يسيطر التطرف على الاعتدال، ففي هذه الحالة يكون القصاص عنيفاً، وقد ينال المعتدل من اذى رفيقه المتطرف الاذى الشديد الذي ربما فاق اذى الاعداء الغرباء.

هكذا حدث بين الفاطميين والقرامطة، وهذا هو الموضوع الأهم في تاريخهم، وقد كنت اتمنى على الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع أن يولوه اهتمامهم ويتوفروا على الوصول الى حقيقته، لا أن يطلعوا علينا باقوال تافهة واراء زاخرة بالاباطيل والاخطاء التاريخية التي ربما تكون وليدة التعصب الديني او الانتماء العنصري او الحزبي او السياسي.

ففي عهد القائم بامر الله لم يبق لقرامطة السواد اي اثر لان الحروب انهكت قواهم وبددت شملهم، فعندما وصلوا الى ما وصلوا اليه من الانهيار والتمزق انتقلت القيادة العامة الى البحرين والاحساء حيث اضطلعت بها اسرة «آل الجنّابي» كما ذكرنا، ولكن هذه الاسرة لم تلبث أن انقسمت على نفسها الى فريقين متحاربين: فريق ينتمي للفاطميين في المغرب، وفريق للعباسيين في بغداد .... واخيراً: تمكن الفريق الموالي للعباسيين من الانتصار واستلام الحكم، وكان على راسه «الحسن الاعصم» الذي اسلم قياده للعباسيين، فاستعملوه للزود عن دولتهم، ووجهوه لاشغال الفاطميين وايقافهم عن حد معين، ثم زودوه بكافة المتطلبات ودفعوه لمهاجمة الفاطميين في عقر عاصمتهم القاهرة مرتين، وقد استمر بهجماته ومعارضته حتى عهد الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله الذي خرج اليه بنفسه، وخاض معه المعركة الأخيرة في الرملة ... التي كانت اخر مرحلة في حياة القرامطة، فبعدها لم يعد لهم اي ذكر، واختفى صوتهم الى الابد.

إنني لا انتصر الى الفاطميين، ولا اتعصب ضد القرامطة، فقد تكون الظروف السياسية والعوامل الاخرى العديدة هي التي فرقت بينهم... على أن كل هذا لا يمنعنا من القول: بان القرامطة فرع شب وترعرع في شجرة الفاطميين، ولكن هذا الفرع انحرف، وشذّ وكان من امره ما قد ذكرنا.

يقول المؤرخ المستشرق برنارد لويس في كتابه اصول الاسماعيلية:

أن حركة القرامطة في البحرين لا تشكل اي اتصال مع الحركة القرمطية بسورية والعراق، ويضيف على ذلك قوله بأنه كان لقرامطة البحرين رؤساء وتقاليد محلية تميزهم عن قرامطة السواد، وتاريخ مستقل، ثم اصبحت لهم تنظيمات محلية خاصة».

إنني لا ادري على أي شيء بنى لويس رأيه هذا، وكأني به لم يقرأ

كتاب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي ارسله للحسن الاعصم القرمطي ... الذي جاء فيه:

أما كان لك بجدك ابي سعيد اسوة، وبعمك ابي طاهر قدوة، اما نظرت في كتبهم وأخبارهم وقرأت وصاياهم وأشعارهم، اكنت غائباً من ديارهم؟ وما كان من اثارهم ... الم تعلم انهم كانوا عباداً لنا اولي بأس شديد، وامر رشيد، وفعل حميد، تفيض اليهم موادنا وتنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الاعمال، ودان لهم كل امير ووال ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا، واسماً من اسمائنا، فعلت اسماؤهم، واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت اليهم وفود الآفاق، وامتدت نحوهم الاحداق، وخضعت لهيبتهم الاعناق، وخيف منهم الفساد والعناد».

اليس في هذا دليل على أن قرامطة البحرين هم جزء من اسماعيلية سلمية، او فرع من الفاطمية في المغرب ومصر؟ ان قرامطة السواد او قرامطة الشمال وأبرز دعاتهم دندان وحمدان وعبدان وآل زكرويه يعتبرون اصحاب المدرسة التي انتهل منها العلم آل الجنابي ودعاة قرامطة البحرين والاحساء والخليج العربي، وهكذا بالنسبة لقرامطة القطيف وجنوبي البصرة ولدعاتها البوراني وأبو الفوارس....

أجل قد تكون السياسة والظروف اوجدت شيئاً من الاختلاف في الآراء ، وكان للمناطق وللقبائل المنتمية بعض عادات تميزهم بحسب الاقليم، وكل هذا لا اهمية له بالنسبة للعقيدة الدينية التي ظلت تعطي الائمة الفاطميين من ولد محمدبن اسماعيل بن جعفر الصادق مقام القيادة الروحية... وكل هذا الحنا اليه في كتابنا عن القرامطة وفي محاضراتنا وبحوثنا الكثيرة.

أما هؤلاء الذين جردوا القرامطة من عروبتهم، واعتبروا حركتهم شعوبية ضد العرب... فالى هؤلاء العرب الأقحاح نقول:

لقد ثبت أن القبائل العربية بنو الاصبع وبنو العليص، وأبناء النضار، ومالك ومعرض، والمجين والبلوى وفخذاش، وهذيل، وزياد، وعليم في بلاد الشام والعراق، وبني عابس، وذهل، وعنزة، ويتم الله وثغل، وشيبان في الخليج والسواد والبحرين، هم حملة الافكار الاسماعيلية، بل هم الركائز والدعائم لها.. فهل هؤلاء من التتر والاتراك او الصليبيين؟

من جهة ثانية...يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن، وطه احمد شرف في كتابها «عبيد الله المهدي» ما يلي:

«آلت زعامة الدعوة الاسماعيلية في سلمية من الناحية العلمية والعملية الى «سعيد الخير» وهو عبيد الله المهدي منذ ان مات احمد بن عبد الله القداح سنة ٢٨٠ هـ. فآلت اليه رتبة «حجة» الامام المستور ... وقد علمنا أن سعيداً هذا ولد سنة ٢٥٩ هـ. او على الارجح سنة ٢٦٠ هـ وانه كان تحت وصاية عمه احمد (ابي الشلعلع) بن عبد الله القداح ... ويخلص اخيراً الى القول باستغراب عن انتقال رئاسة الدعوة الى سعيد، وكيف صار إماماً بعد أن كان حجة؟ ويعود الى القول:

بأن هذا فصل شائك في تاريخ الاسماعيلية خاصة، وفي تاريخ المسلمين عامة لما اكتنفه من شكوك وأحاطه من غموض اذ كيف يتحول الحجة الى إمام؟»

إن أقوال المؤرخين الدكتور حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف تعطيان الدليل على انهما كغيرهما لم يعرفا مراتب الدعوة الاسماعيلية، ولم يقفا على نظام الدعاة والقوانين المتبعة التي تقضي على الامام نفسه ان يمر بمرتبة الحجية قبل وصوله الى مرتبة الامامية، فمرتبة الحجية هي خاصة بولي العهد عندما يكون الإمام قائماً بدوره، وعندما يموت يصبح ولي العهد الذي كان حجة اماماً.

ولكن هذا الموضوع فيه كل الاختلاف، ولا يتفق مع ما حدث بعهد سعيد الخير او عبيد الله المهدي، فسعيد الخير هذا لم يكن اماماً مستقراً، وانما كان اماماً مستودعاً تسلّم الامامة وكالة ونيابة عن الامام «القائم بامر الله» الذي كان صغيراً بعد أن مات والده «علي المعل» بن حسن بن احمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق. وهذا ثابت في المصادر الاسماعيلية التي ظهرت حديثاً.

من هنا فأن هذه المراتب، بل هذه الاوضاع التي حدثت في سلمية بعهد الائمة الاسماعيليين المستورين اوجدت هذا الشك، وأوقعت العديد من المؤرخين بالاخطاء التي لا تزال تظهر في التاريخ.

ولا بد ونحن في صدد جلاء هذه النقطة الغامضة من تاريخنا من العودة؛ الى رأي مؤرخ قديم ربما كان ما كتبه اقرب الى الواقع ...انه المؤرخ النويري الذي يقول:

«أن حمدان بن الاشعث «قرمط» كان على اتصال بمركز الدعوة في سلمية .... فلاحظ تعابير غير مألوفة في رسائل الامام تدل على تبدل مهم، فساوره الشك في الامر، وأرسل عبدان الى سلمية ليتحرى الوضع، فعرف أن «أحمد بن عبد الله» قد توفي وخلفه ولده «الحسين» ... **ولما** اجتمع عبدان بالحسين سأل عن **الإمام** الذي يجب أن يدعى له، وعن حجّة ذلك **الإمام**؟

فأجاب الحسين مستفسراً باستغراب: ومن هو الامام اذن؟ فقال عبدان:

إنه محمد بن اسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي دعا له احمد بن عبد الله بن ميمون وكان حجته، فاستنكر الحسين ذلك وقال:

أن الأمام كان والده وأنه حلّ محله الآن ... وعندئذٍ ادرك عبدان حقيقة القداحيين، وأنهم أنما خدعوا الناس، وأرادوا اجتذابهم نحو

صفوفهم بأن اتخذوا اسم ميمون حجاباً احتجبوا به عن الاعداء »

هذا الرأي الذي اورده المؤرخ النويري تتمثل فيه الحقيقة باجلى مظاهرها، وهو يؤيد ما ذكرناه بأن الائمة المستورين من ولد محمد بن اسماعيل ستروا انفسهم عن كافة الناس حتى عن الدعاة وتسموا باسماء مختلفة وابرزها« القداحيين »وقالوا انهم حجج للإمام المنتظر، وقد ظلّ هذا سائداً ومعترفاً به حتى وقت ظهور «عبيد الله المهدي - سعيد الخير» الذي رأى ان الفرصة قد اصبحت سانحة للاعلان عن الحقيقة ... فوقع ما وقع، من انشقاق القرامطة عن مركز قيادة الدعوة ... وكل هذا فصلناه في بحوث ومقالات سابقة.

إن العباسيين عندما مدوا ايديهم الى القرامطة، لم يكن عملهم هذا حباً او عطفاً وانما ارادوا أن يضربوا بهم الدولة الفاطمية التي كانت بزحفها تتجه الى بغداد، وقد كلفتهم هذه السياسة الوافر من الاموال، خاصة وأن القرامطة وصل بهم الامر الى حد اصبحوا يهددون الدولة العباسية ويهزأون من خلفائها يدلنا على ذلك كتاب ابي طاهر الجنابي قائد قرامطة البحرين الى الخليفة المقتدر العباسي وقد جاء فيه ما يلي:

«من ابي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي - الداعي الى تقوى الله، والقائم بأمر الله، والآخذ بثأر رسول الله ﷺ...

الى

قائد الارجاس المسمى بولد العباس...

هذا وقد خرج عليك الامام المنتظر، والأسد الغضنفر في سبيل الظفر، متقلداً سيف الغضب، مستغنياً عن نصرة العرب، لا تأخذه في الله لومه لائم ... قد اكتنفه العز من حواليه، وسارت الهيبة بين يديه، وضربت الدولة عليه سرادقها، والقت عليه قناع بوائقها، وانقشعت طخا الظلمة ودجنة الضلال، وغاضت بحار الجهالة، ليحق الحق، ويبطل

الباطل، ولو كره المجرمون.

فأما ما ذكرت من قتل الحجيج، واضطراب الامصار، واحراق المساجد.... فوالله ما فعلت ذلك الاّ بعد وضوح الحجة كايضاح الشمس، وادعاء طوائف منهم انهم ابرياء، ومعاينتي فيهم اخلاق الفجار .. فحكمت عليهم بحكم الله. ومن لا يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون.

واماّ ما ذكرت من احراق مساجد الابرار ... فأي مساجد أحق بالخراب من مساجد اذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى. وعلى رسوله باساليب من مشائخ فجرة، بما أجمعوا عليه من الضلالة، وابتدعوا من الجهالة.

وأماّ تخويفك لي بالله، وامرك اياي بمراقبته، فالعجب من بهتك، وصلابة حدقتك... أترى اني اجهل بالله منكَ ....؟ لأنت امير الفاسقين، اولى بك من امير المؤمنين.

وبعد:

فهالك والوعيد والابراق والتهديد ... اعتزم على ما أنت عليه عازم، وأقدم على ما انت عليه قادم ... والله من ورائي ظهير ...وهو نعم المولى ونعم النصير...والحمدلله..وصلى الله على خيربريته وآله وعترته ».

يقول الدكتور حسن ابراهيم وطه احمد شرف في تعليقهما على هذا الكتاب:

«إننا لا نرى في رد ابي طاهر على الخليفة المقتدر العباسي ما يشعرنا بأنه لم يكن على غير الاسلام، او أنه كان يسعى لهدمه ... وانما كان يخرب المساجد ويحرقها لأنه كان يعتقد أن الشعائر الاسلامية لم تكن تؤدى فيها على وجهها الصحيح »

ونحن لا نقر ما قاله المؤرخ حسن ابراهيم وزميله طه، فمثل هذه

الاعمال نعتبرها خروجاً على الاسلام وعلى المبادىء الانسانية، فالفاطميون من جهتهم استنكروها وشجبوها واتخذوا التدابير الرادعة لمنع تكرارها ووقوعها فأثبتوا بذلك عن تسامحهم ونبلهم وعن عدم مسؤوليتهم عما يقترفه القرامطة من اعمال، وبهذا يعطون الدليل على أن هذه الفرقة قد شذت عنهم وابتعدت وسارت في طريق غير طريقهم ...

ان الفاطميين لم يكونوا مصدر شر للانسانية، بل كانوا دعاة خير، وحملة لواء نظام فكري واسع، وقد خدموا العلم وأقاموا صرح المدنية والحضارة في كل قطر حكموه، كما أنهم رفعوا ألوية الادب والفلسفة والمعرفة، وعلموا الشعوب النظام والثورة على الفساد والظلم، وحاولوا هدم المجتمعات القبلية، واقامة مجتمعات افضل على انقاضها ....أما اذا شذت فرقة من الفرق التي علموها وثقفوها عنهم، فليس معنى هذا انهم مسؤولين او مدانين بعرف الشرائع والقوانين.

أما شيوعية النساء التي الصقوها بالاسماعيلية ....فلا ارى اي مجال لمناقشتها الآن... لأنها برأيي لا تستحق الذكر... ويكفي ان يكون مصدرها الحقد والضغينة والتعصب الموروث.... وياويل التاريخ من الحاقدين والجاهلين الذين ما زالوا يتصدرون المجالس والمنابر، ويصولون ويجولون على مسرح هذه الامة الاسلامية.

اعلام الفلسفة والادب في عهد القائم بامر الله:

انجبت الدعوة الفاطمية في عهد القائم بامر الله عدداً من الاعلام الذين ساهموا في خدمة الدولة عن طريق العلم والفلسفة، وكرسوا انفسهم للعمل مستخدمين القلم واللسان للذود عن عقيدتهم ومبادئهم، ومن الواضح أنهم نجحوا وتمكنوا من استقطاب الالآف من الناس، فضلاً عن تأثيرهم في الحياة العقلية، وبروزهم على مسرح الحياة. ويأتي في - طليعتهم:

أبو حاتم الرازي:

هو: محمد بن ادريس بن منذر بن داؤد بن مهران الرازي الحنظلي توفي سنة ٢٧٥ هـ. أما ولادته فلم يذكرها التاريخ ... الاخبار عنه قليلة جداً تمثل بقية دعاة الفاطميين ولاندري سبب هذا الاغفال؟

لعب دوراً بارزاً في مجال السياسة في اقطار طبرستان والديلم وخاصة في الري واصبهان، ومن الجدير بالذكر ان عدداً من رجال وامراء تلك الدولة قد استجابوا له امثال: اسفار بن شيرويه، ومارداويج بن زياد وغيرهما، فمن هنا وجب علينا أن لا نقلل من أهميته، بل علينا اعتباره علماً من اعلام النهضة العلمية الاسلامية في ذلك العهد.

يعتبر كتاب «الزينة» من اهم مؤلفاته ... فهو مجلد ضخم بألف صفحة ويزيد، وقد تناول فيه القضايا الفقهية، وفلسفة .ما وراء الطبيعة، وبعض المعلومات الجغرافية القيمة، بالاضافة الى فقة اللغة واشتقاق الكلمات والنوادر الادبية.

وهذا الكتاب اهداه الى القائم بامر الله، ولكن لم يذكر التاريخ ان ابا حاتم قد زار المغرب، وقدم الكتاب للقائم بامر الله ....وبالرغم من اغفال ذلك، فإننا نؤكد أنه حمله وجاء به حيث قدمه للخليفة الفاطمي بيده.

ولأبي حاتم كتاب «الاصلاح» الذي رد فيه، او الذي اصلح فيه بعض اراء لاستاذه «النسفي» التي وردت في كتاب «المحصول».

وله كتاب «اعلام النبوءة» وفيه يرد على «ابي بكر الرازي» ويناقش اراءه في الفلسفة والنبوءة والامامة...وقد ظهر في هذا الكتاب وكأنه من اعلام الطب الروحاني والجسماني في وقت لم يمارسها. وبعد ظهور الكتاب حكم له العلماء المنصفون على ابي بكر، وقدروا افكاره وقدموه عليه.

للرازي مؤلفات عديدة اخرى اكثرها قد فقد مع كل اسف....
وعلى العموم فانه كان من الاعلام الذين ساهموا بنشر المعرفة والثقافة، وعززوا قواعد الفلسفة العربية وآدابها، فأصبحت السطور القليلة لا تفي بالتعريف عنه.

ابو عبد الله احمد النسفي

هو من كبار العلماء الذين خدموا الدعوة الفاطمية في عهودها المبكرة.... ذكر انه من سلمية وانه تثقف فيها ... وعرف بأن مجال خدمته كان في بلاد فارس ... وتأكد أنه اتصل باميرخرسان «نصر بن احمد الساماني» ولازمه وتمكن من ادخاله في دعوة الفاطميين.

ومما يجب ان يذكر: أن نصراً قبل اتصال النسفي به قد قتل احد دعاة الفاطميين... فأجبره اخيراً على دفع ديته للقائم بأمر الله وقدرت بمئة وعشرين الف دينار.

أقدم مؤلفاته «المحصول» وهذا الكتاب قد لاقى استحساناً في الأوساط العلمية، واعتبر من الكتب المهمة والاساسية لكل الفلسفات التي جاءت بعدها، ولكن هذا الكتاب قد فقد مع كل اسف، وللدلالة على أهميته التنقيب الذي قام به المستشرقون والباحثون في كل مكان عنه دون أن يحققوا اية نتيجة.

لم نتمكن من الحصول على معلومات تدلنا على حياته وتاريخ ولادته ... وقد رجّح بعضهم انه مات اغتيالاً. من الجدير بالذكر أن حياته امتدت حتى عهد القائم بأمر الله. لقب بالداعي «النخشبي».

أبو يعقوب السجستاني:

عاصر الدعوة الفاطمية في عصري الستر والظهور، وعاش في بلاد يتمذهب اهلها بمذهب السنة فكان مجبراً ان يعتمد «التقية» ويحذر اشد الحذر في حركاته ودعواته، ولهذا فلم نتمكن من الوقوف على سيرة

حياته او نصل الى كل شيء عنها، فمثله مثل اكثر العلماء الفاطميين الذين اكتنف حياتهم الغموض خاصة بعد أن فقدت مؤلفاتهم التي دونوا فيها سير حياتهم، وما قاموا به من اعمال.

ينسب الى «سجستان» وهي مقاطعة في جنوب خرسان من اسرة فارسية قيل انها اسرة بطل الفرس «رستم» ولا ندري حقيقة هذا الزعم؟

ذهب المستشرقان «ماسينيون» و«ايڤانوف» الى القول انه مات سنة ٣٣١ هـ. ولكني اخالفهما في هذا القول، فالمعروف عن السجستاني انه كان استاذاً للكرماني، وتلميذاً للنسفي، فيكون بذلك قد عاصر القائم بامر الله وانه ظل عائشاً حتى سنة ٤١١ هـ. وهناك نص صريح في كتاب الافتخار للسجستاني يذكر انه وضعه سنة ٣٦٠ هـ. وقد ورد كتاب الافتخار في الرياض للكرماني، والمعنى ان كتاب الرياض وضع بعد الافتخار اي سنة ٣٦٠ هـ. وكل هذا يجعلنا نؤكد بأن السجستاني ادرك عصر الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، وابنه العزيز بالله اي انه كان معاصراً لجعفر بن منصور اليمن وللقاضي النعمان بن حيُّون وغيرهما من كبار الدعاة والمفكرين الفاطميين.

ذكر التاريخ:

أنه مات قتلاً ... ولا ندري صحة ذلك؟ ترك السجستاني عدداً من المؤلفات باللغتين العربية والفارسية، وقد ذكرها ابن مجدوع واهمها:

أسس الدعوة، وكشف المحجوب، وتأويل الشرائع، وسوسن النعم او سوسن البقاء، والرسالة الباهرة «وهذه الكتب الخمسة ذكرها البيروني، وجاء على ذكرها ايضاً البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق» ومع كل أسف لم يبق منها الاّ تأويل الشرائع والرسالة الباهرة.

وله كتاب الافتخار وهو مقسم الى سبعة عشر باباً، وكتاب اثبات

النبوءآت وهو مقسم الى سبع مقالات وكل مقالة مقسمة الى اثني عشر فصلاً، وله كتاب الموازين وهو مقسم الى تسعة عشر ميزاناً، وله كتاب الينابيع وهو مقسم الى اربعين ينبوعاً، وله كتاب سلّم النجاة، وله كتاب النصرة في الرد على ابي حاتم الرازي وما اورده في كتابه الاصلاح، وله كتاب المقاليد في معنى الاسر.

امّا رسائله القصيرة فأهمها:

مسليات الاحزان، واسرار المعاد والمعاش، والمواعظ في الاخلاق، والغريب في معنى الاكسير، ومؤنس القلوب، وتأليف الارواح، والأمن من الحيرة، وخزائن الادلة، والبرهان، وتحفة المستجيبين وهذه الكتب او اكثرها لم يعثر عليها.

ومهما يكن من أمر فان السجستاني يعتبر من أشهر الفلاسفة الذين كتبوا في تاريخ الفكر الاسلامي أنضر الصفحات، ورفعوا منارة العلم في ديار المشرق والمغرب على السواء، فلم يكونوا منكمشين أو متعصبين – كغيرهم، بل نراهم يحملون لواء التحرر، ويقودون معارك الكلام في جو رياضي لا يطغى عليه سوى الانفتاح ومقارنة الحجة بحجة مثلها على ضوء العلم والمعرفة.

النعمان بن حيُّون المغربي التميمي:

وكما في المشرق ...فان المغرب اطلع العديد من الدعاة والفلاسفة، ويعتبر النعمان بن حيون ابرزهم ...

هو: ابو حنيفة القاضي بن ابي عبد الله بن محمد بن منصور بن احمد بن حيّون التميمي المغربي. عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري... أي في سنة ٣١٣ هـ. باشر عمله ودخل في خدمة الدولة الفاطمية أما وفاته فقد وقعت سنة ٣٦٣ هـ في القاهرة بعهد الخليفة

الفاطمي الرابع المعز لدين الله.

اعتبر النعمان بنظر المؤرخين والباحثين المؤسس الاول لأسرة عظيمة عريقة خدمت العلم وادت للدولة الفاطمية أجلّ الخدمات واعظمها في مجال العلم والادب والفقه والثقافة، فكان انتاجها ذا تأثير على مجرى التفكير العام، وعلى الحياة العقلية ليس في الديار المصرية بل في كافة اقطار العالم الاسلامي، ومن هنا يمكننا ان نقول عنه بانه اشهر فقيه في عصره، واغزرهم مادة، وأخصبهم قريحة.

دخل في خدمة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٣١٣ هـ، وقيل أنه كان مالكي المذهب، ثم خدم القائم بامر الله، والمنصور بالله، والمعز لدين الله.

في أول أمره عين قيماً على مكتبة القصر، وانيط به مهمة الاشراف على جمع الكتب وضمها الى المكتبة العامة، وحفظها، وبعد ذلك ولي القضاء في طرابلس الغرب أي في عهد القائم بامر الله، وبعهد المنصور بالله نقل الى المنصورية التي اصبحت عاصمة الدولة الفاطمية في المغرب، وبعد قيام الدولة الفاطمية في الديار المصرية رحل مع المعز لدين الله اليها، وأصبح «قاضي القضاة».

كان فقيهاً ومشرعاً وشاعراً وفيلسوفاً، وقد ذكر ان له ما يزيد على الستين كتاباً في الفقه والاحكام والقانون والشريعة والفلسفة، فهي بمجموعها اعتبرت الذخيرة الحية والتراث الذي يمثل وجه الدولة الفاطمية، وهذه الكتب قد فقد بعضها... واهمها:

كتاب دعائم الاسلام وهو يمثل الفقه الفاطمي المستمد من فقه الأمام جعفر بن محمد الصادق ويقع في مجلدين، وله كتاب «أساس التأويل» في تأويل قصص الأنبياء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الفارسية المؤيد في الدين داعي الدعاة بالنظر لأهميته،وله كتاب «افتتاح الدعوة» و «المجالس والمسايرات» في أدب

التاريخ، وهو اقوم مصدر عن حياة الخلفاء الفاطميين الاربعة: المهدي، والقائم والمنصور والمعز، ففي الكتاب فصول عن حياة الخلفاء المذكورين في قصورهم اوقات فراغهم، كما أنه يذخر بالوثائق التاريخية عن نظام الحكم لدى الفاطميين، والنصائح التي كانوا يسدونها للولاة وللحكام ...مضافاً الى ذلك اعتماد الدولة على قبيلة «كتامه» وتولية رجالاتها المناصب المهمة في الدولة. وفي الكتاب ايضاً تظهر علاقة الفاطميين بالأمويين في الأندلس. ومن جهة أخرى فقد افرد في كتابه بضع صفحات للحديث عن الحملات البحرية التي شنها الفاطميون على الناصر الأموي (وهذا لم نقرأه في كتب تاريخية اخرى). اذ أنه يذكر أول اتصال للناصر الأموي بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله... فكان يتزلف اليه مرة ويهدده أخرى... وتعتبر الرسائل المتبادلة من أقوم ما كتب في البلاغة والأدب والمنطق بالنظر لما اشتملت عليه من الحجج والبراهين في النفي والاثبات وما الى ذلك. وعرض النعمان غير مرة بأن الناصر كان يحالف الروم سراً ضد الفاطميين.

ومهما يكن من أمر فكتاب المجالس والمسايرات يعتبر قطعة ادبية رائعة، ويمتاز باسلوب رقيق، وفيه الانسجام في الالفاظ والمعاني، وهو على العموم مرآة صادقة للأدب في ذلك العصر.

وله كتاب: الايضاح، ومختصر الايضاح، والاخبار، والينبوع، والاقتصار، والاتفاق والافتراق، والمقتصر، والعقيدة المنتخبة، ومختصر الآثار، وكتاب يوم وليلة، والطهارة وكيفية الطهارة، ومنهاج الفرائض.

وله الرسالة المصرية في الرد على الشافعي، ورسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة، واختلاف اصول المذاهب، ودافع الموجز في الرد على العتكي.

وله نهج السبيل، ومعرفة علم التأويل، وتأويل دعائم الاسلام، وحدود المعرفة، وكتاب التوحيد والإمامة، وإثبات الحقائق، وكتاب في

الأمامة.

وله العقيدة المختارة، والتعاقد، والانتقاد، والدعاء، والهمة، في آداب اتبـاع الائمة، والحـلي والشبـاب، والشروط، وشرح الاخبـار، وقصيدة ذات المنن وقصيدة ذات المحن.

وله مناقب بني هاشم، وتربية المؤمنين، وتأويل الرؤيا، والتقريع والتعنيف، ومفاتيح النعمة، وتقويم الاحكام، والراحة والتسلي، وسيرة الائمة.

جعفربن منصور اليمن:

جاء الى المغرب من اليمن سنة ٣٢٢ هـ فوضع نفسه في خدمة الدولة الفاطمية ... وكان موضع تقدير القائم بامر الله، وابنه المنصور بالله، ومن الجدير بالذكر أنه انتقل الى القاهرة عندما اتخذها المعز لدين عاصمة لدولته، وهناك اسند اليه مهمة «داعي الدعاة» وهي اعظم رتبة في الدعوة.

لجعفر بن منصور عـدد من الكتب الفلسفية وأهمها:

أسرار النطقاء، وسرائر النطقاء، وله كتاب الكشف، والفرائض وحدود الدين، ويعتبر هذا الكتاب من اقوم المصادر التي كشفت عن سر من أسرار الدعوة الفاطمية وهي:

إمامـة عبيـد اللـه المهـدي «الاستيـداعيـة» وقيـام هـذا الخليفـة بمهمةالوصاية على الامام المستقر الأصيل القائم بامر الله.

مات في مصر ودفن في القاهرة سنة ٣٦٣ هـ.

أحمدبن محمدبن هرون البغدادي:

عاش في الاندلس، ونعم بخيـراتها، وحاز على تقدير اهلها، واليه يعُزى نشر مؤلفات الجاحظ، وابن بيهم.

من الاندلس انتقل الى المهدية لأسباب غير معروفة، فدخل في خدمة عبيد الله المهدي الذي عينه كاتماً لاسراره، وأميناً على رسائله، فظلّ قائماً بهذه المهمة في عهد القائم بامر الله، وابنه المنصور بالله.

كان على جانب كبير من العلم والفضل والمعرفة بكافة العلوم، ولكن لم يذكر ان له مؤلفات او انه ساهم في الحركة الفكرية السائدة في عصره.

مسلمة الجريطي:

سمّي أمير الحسابين الاندلسيين، فهو الذي نقل المراصد الفلكية من بغداد الى الاندلس، حتى اصبح توقيت طليطلة في عهده التوقيت المعمول به للعالم المتمدن في تلك العصور البعيدة، وقد اخذ عنه علماء الفلك الكثير من المسائل الحسابية والهندسية فضلاً عن علوم الفلك والطب والكيمياء.

عرف عنه أنه تأثر كثيراً بالفاطميين.... وذكر انه كان على اتصال سري بهم في المغرب يدلنا على ذلك اقدامه على نشر كتاب رسائل اخوان الصفاء وخلّان الوفاء ورسالتهم «الجامعة» في بلاد الاندلس. ومن المؤكد أنه اعتمد كثيراً على هذه الرسائل في بحوثه ومؤلفاته لدرجة أن بعضهم نسبها اليه.

هذا بالنسبة للفلاسفة وللعلماء ... أمّا الشعراء الذين عاشوا في عهد القائم بامر الله، فلم يأتِ التاريخ على ذكر أي منهم الاّ «علي بن محمد الايادي» الذي أورد القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة بعض مقاطع له، وهي على قلتها لا تعطي اية فكرة او معرفة لحياة هذا الشاعر.

والحقيقة:

فإن الحياة الادبية في عهد القائم بامر الله، بالرغم من العواصف

السياسية الهوجاء كانت مزدهرة ويانعة وتسير في طريق التطور والنهوض... فهذه الدولة الفاطمية الفتية استطاعت رغم الثورات العنيفة أن تشق طريقها للوصول الى الأهداف الأدبية والحضارية، وأن توفر الأسباب وتشجع كل ما يمت الى الفكر بصلة، وكل هذا يعطي الدليل على أن صرح الادب كان منيعاً.

ولا بد من القول ونحن نختم كتابنا عن هذا الخليفة بأن الأمانة التاريخية، وقول الحقيقة، والابتعاد عن السفاسف، والتعصب الديني الذميم كان رائدنا في كل ما قلناه وذكرناه.

فعندما يصفو الذهن، ويتحرر الانسان من القيود، ويقف أمام المسؤوليات الانسانية الجسام وجهاً لوجه، فلا يجد أمامه الاّ اللجوء الى كنف الحقيقة والاستظلال بظلال الواقع ضارباً بالافكار البغيضة وتيارات الجهل عرض الحائط، وكم نحن بحاجة الى تحرير العقل، وتنقية الضمير.



« المنصور بالله » الخليفة الفاطمي الثالث:

لم تهدأ ثورة الخوارج، أو تقف عند حد من الحدود ... فقائدها ابو يزيد « صاحب الحمار » لم يستسلم، أو يعود الى جادة السلام، وما لبث أن عـاود نشاطه، وجاء بجيوشه الجديدة الى القيروان حيث دخلها واعتبرها قاعدة لدولته، ثم اتخذ رقادة مقرا له ولإدارة اعمال ثورته.

أما القائم بأمر الله فقد وقف أمام الخطر الجديد الداهم، موقف الصامد المفكر بأمر هذه الثورة والطريقة التي يجب اعتمادها للقضاء عليها ... فكر باستدعاء « زيري بن مناد » امير صنهاجة مرة ثانية، ولكن زيري كان في تلك الساعات يخوض حرباً مريرة ضد الزناتيين وفلول الادارسة في المغرب الأقصى.

واخيراً:

مات القائم بأمر الله فجأة في قصره، والحالة العامة في دولته على ما هي عليه .... مات وترك لابنه المنصور بالله أمر معالجة الأمور... وهذا ما سنعالجه في الصفحات التالية:

أمام المصادر التاريخية:

المصادر التاريخية عن الخليفتين القائم بأمر الله والمنصور بالله قليلة جداً، فكل ما ذكر عنهما لا يتعدى بضعة صفحات متفرقة في كتب عديدة، وبعض هذه الأخبار لا يمكن الاعتماد على صحتها بالرغم من أن بعضها من مصادر فاطمية فأمام هذا الواقع كان علينا أن ننقب عن مصادر اخرى لكي يصبح لكل واحد من الخليفتين كتاب خاص به يمكن الاعتماد عليه والرجوع اليه عندما تقضي بذلك الحاجة.

فمن اهم المصادر التي اعتمدنا عليها كتاب « المجالس والمسايرات »

وكتاب «افتتاح الدعوة» وهما للقاضي النعمان بن حيون التميمي، ويأتي بعدهما كتاب «استتار - الامام» للنيسابوري - وكتاب «عيون الاخبار» لادريس عماد الدين اليمني؛ وسيرة جوذر الكاتب، وهناك قصيدة «ذات المحن» للنعمان أيضاً، وهي تعتبر من أقوم المصادر في وصف ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي.

وعندما نتحدث عن أهمية هذه المصادر وقيمتها التاريخية بالنسبة للخليفتين القائم والمنصور. نضع سيرة جوهر في الطليعة ونعطيها الأهمية الأولى، ففيها:

يتحدث المؤلف عن رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين اغفل التاريخ ذكرهم، وهو «جوذر الصقلي» الذي عرف بالاستاذ، وكانت له مكانة رفيعة في الدولة الفاطمية، وحظوة مرموقة في عيون الخلفاء الفاطميين.

ويحدثنا الكتاب ايضاً:

عن دخول جوذر في خدمة عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي في المغرب، ويذكر كيف أن المهدي أهدى هذا الغلام الى ولي العهد القائم بأمر الله، وكيف قويت اواصر الثقة والمودة بين العبد وسيده لدرجة أن القائم بأمر الله وكان لا يزال ولياً للعهد استخلفه على قصره، ووكله على أهله وحرمه عندما كان يذهب على رأس الحملات العسكرية ... ولمّا توفي عبيد الله المهدي خصّ القائم بامر الله جوذر دون سائر أهله برتبة الوصاية على ولي عهده وابنه المنصور بالله ... فظلّ هذا الأمر مكتوماً الى حين اعلان القائم بأمر الله ولاية العهد على الناس.

وفي عهد القائم بأمر الله كان جوذر يشرف على بيت المال وخزائن الكساء، فضلاً عن اضطلاعه بمهمة السفارة بين القائم والقواد وزعماء القبائل، وظلّت مكانة جوذر ترتفع يوماً بعد يوم حتى أصبح مرموقاً ومحترماً لدى كافة الطبقات، وزاده اعتباراً اخلاصه للفاطميين ومحبته

للخير، وعطفه على الفقراء.

وعندما توفي القائم بأمر الله لم يعلن المنصور بالله عن وفاة ابيه، بل ابقى الأمر سراً عن كل الناس الاّ عن جوذر، ثم خرج لحرب الخوارج، واستخلف جوذر على قصره وعلى مقر الخلافة العام، وسلمه مفاتيح خزائن الأموال، ولمّا عاد المنصور بالله من حروبه مع الخوارج أي بعد «أربعة اعوام وقيل سبعة» اعلن عن وفاة والده القائم بأمر الله رسمياً .... وفي تلك الفترة كافأ جوذر على خدماته وامانته وأعتقه ولقبه «مولى امير المؤمنين» وأمره أن لا يكني في رسائله احداً، ولا يقدم على اسمه اسماً الاّ الخليفة وولي العهد، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولي عهده وأن يثبت اسمه على البسط والحصر وكل هذا امعاناً بتقديره ووفاءً لامانته.

ويذكر التاريخ:

أن جوذر هذا مات وهو في طريقه الى مصر للالتحاق بالخليفة المعز لدين الله، في مكان قريب من مدينة «برقة» يعرف «بمياسرة» وذلك سنة ٣٦٢ هـ.

ومهما يكن من أمر .... فان أهمية جوذر لم تقف عند ناحية معينة من تاريخ الفاطميين، أو على ترجمة سيرة أحد من رجال دولتهم الذين كان لهم ابلغ الأثر في اعلان شأنها منذ نشأتها، وانما يوضح بعض النواحي الغامضة التي لم يتعرض اليها المؤرخون القدماء.

ففي الكتاب صفحات عن الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية مضافاً الى ذلك علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية... وهناك ناحية أهم من كل ما ذكرناه وأعني بها الجفاء او العداوةالتي كادت تنبثق بين المنصور بالله وبين اولاد عبيد الله المهدي الخليفة الأول... ويستدل من ذلك على طلب المنصور بالله من جوذر مراقبة حركاتهم ورصد تنقلاتهم وموافاته بكل شيء عنهم وهو في صدد

حرب الخوارج.

ان مؤلف سيرة جوذر تلك هو: رجل مغمور عرف باسم «منصور الجوذري العزيزي» وكان قد دخل في خدمة جوذر سنة ٣٥٠هـ. وأصبح موضع سره، وقد ظل في عمله حتى وفاة معلمه جوذر، فاتصل بالمعز لدين الله، وبعده بالعزيز بالله الذي منحه الرتبة التي كانت لمولاه جوذر.

وهناك مصدر لا يقل أهمية، وأعني به سيرة جعفر الحاجب التي كتبها «محمد اليماني» بعد أن سمعها من جعفر الحاجب الذي رافق عبيد الله من سلمية - سورية الى المغرب، وفي هذه السيرة طرائف عن هذه الرحلة العجيبة، كما أن فيها معلومات قيمة عن القائم بأمر الله.

وفي كتاب «استتار الامام» للنيسابوري معلومات دقيقة عن عهد الستر في سلمية، ولاول مرة يكشف لنا عن اسماء بعض الدعاة الذين ساهموا وعملوا وخططوا لاقامة الدولة الفاطمية وهم:

أبو غفير، وأبو سلامة، وأبو الحسن الترمذي، وجياد الختعمي، وأحمد بن الموصلي، وأبو محمد الكوفي وغيرهم.

هذا بالاضافة الى ماورد في كتابي المجالس والمسايرات وافتتاح الدعوة للنعمان، وما ذكره ادريس عماد الدين في كتابه عيون الاخبار، تمكنا من ايجاد كتابين مستقلين عن الخليفتين الفاطميين القائم بأمر الله، والمنصور بالله، وعندما نضعهما موضع التداول فنكون قد حققنا ما رجوناه واضفنا الى تاريخنا العربي صفحات ظلت مجهولة منذ الاف السنين.

من هو المنصور بالله الخليفة الفاطمي الثالث:

اسمه: المنصور بالله... لقبه: ابو طاهر... وكان يحب أن ينادونه باسماعيل تيمناً بجده الأكبر اسماعيل بن جعفر الصادق.

ولد في القيروان سنة ٣٠٢هـ وليس في المهدية كما ذكر... تولى

الخلافة بعد وفاة والده القائم بأمر الله سنة ٣٣٤هـ وكان في سنه الثانية والثلاثين، ومات في المنصورية المغربية سنة ٣٤١هـ. فيكون قد عاش تسعة وثلاثين عاماً امضى منها سبعة اعوام على مقعد الخلافة الفاطمية.

ذكر اسمه في التاريخ محاطاً بهالة من المدح والاطراء ... فجميع المؤرخين اتفقوا على القول بأنه:

كان شاباً وسيماً، يمتلك القوة والرجولة، والبراعة في القتال، وعمليات الكر والفر ... طموحاً عالي الهمة، عزيز النفس ... يحمل شعار الصدق في الحياة، والصراحة والوفاء والكرم، والثقة بالنفس الى جانب الثقافة الواسعة، والعصامة، وامتلاك ناصية اللغة العربية الفصحى.

وذكر: بأنه كان شاعراً رقيقاً، وخطيباً مفوها يرتجل الكلمات، وعبارات الحماسة التي تقربه من قلوب الناس، وخاصة المحاربين الذين يمشون تحت قيادته، فيسيطر على مشاعرهم، ويمتلك محبتهم... عرف أنه كان عالماً بالنجوم وهو القائل:

«والله ما نظرت فيها الاّ طلباً للعلم، وتوحيد الله، وتأثير قدرته، وعجائب خلقه ... ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها ... فما عملت في شيء من ذلك باختبار مني دلائل النجوم، ولا التفتُ اليه».

وكان يباشر الحروب بنفسه، ويقود المحاربين الى ساحات القتال، ويعطي الخطط الصائبة في الميادين ولم يعرف عنه أنه خسر معركة، أو فرّ أمام فارس، كما أنه لم يسمح لقائد من قواده أن يتقدم عليه، أو يتسلم قيادة دونه...

عُرف أن الخليفة الأول عبيد الله المهدي كان يوليه محبته وعطفه، وأنه كان يتولى تربيته والاشراف على تعليمه لما توسمه فيه من الخير... وذكر أنه كان جليسه في اوقات فراغه يخصه بالمزيد من التعليم

والارشاد والتوجيه.

لم يذكر التاريخ عن طفولته وشبابه الاّ القليل ...وكل ما عرف انه عاش في كنف والده القائم بأمر الله، وأنه عاصر الأحداث، والثورات العنيفة التي اندلعت في انحاء الدولة... فكثيراً ما كان يلحّ على والده بالسماح له بالخروج لخوض المعارك والمساهمة بالحروب... ولكن الوالد البار كان يخاف عليه من الاندفاع الشديد، ومن الحماس الذي لا يقف عند حد من الحدود ... ولهذا وقف بوجه رغباته وتطلعاته.

كتم خبر وفاة والده القائم بأمر الله عن كل الناس، وذكر انه دفنه في احدى حجرات القصر سراً خوفاً من ردة الفعل لدى افراد الجيش ورجال الدولة والقبائل، لا سيما ولم تكن قد جرت مبايعته للخلافة، ومما يجب أن يذكر أن خبر الوفاة ظلت خافية على الناس مدة ثلاثة اعوام حتى تم له القضاء على ثورة الخوارج، وطيلة تلك المدة كان يعلن على الملأ بأن والده مريض، ولا يقوى على مغادرة القصر، وأنه إنما يقوم بأعمال الحرب باعتباره ولياً للعهد، وبأمر من الخليفة.

وأخيراً:

مات المنصور بالله سنة ٣٤١ هـ... كما ذكرنا وكان له من العمر تسعة وثلاثون عاماً... أما سبب الوفاة فقد وردت في كتب التاريخ هكذا:

خرج المنصور بالله مع بعض رفاقه الى الصيد، فاشتد هطول الأمطار، وهبت عليهم رياح ثلجية عاتية، بينما كانوا في منطقة جبلية عسيرة، وبعيدة عن العمران، فلم يجدوا ملجأ ومات اكثرهم ... اما هو فقارع الرياح وعاد الى المنصورية وهي عاصمته الجديدة التي سمّاها باسمه، وهو منهوك القوى، واهن الجسم، وبدلاً من أن يركن الى الراحة وتلقي العلاج ... دخل الحمّام، وكان طبيبه « اسحق بن سليمان » قد نهاه عن ذلك، فلم يأخذ بنصيحته ...وكان أن اشتد عليه

المرض، واصيب بالارق، فطلب طبيباً آخر، أعطاه دواءً منوماً كان السبب في الوفاة.

وجاء بمصدر آخر وهو اقرب الى الحقيقة:

خرج المنصور بالله سنة ٣٤١ الى بلدة «جلولاء» متنزهاً، وهو مكان يبعد أربعة وعشرون ميلاً عن القيروان، وقد اشتهر بكثرة ثماره ورياحينه وفواكهه، وقد ذكر أنه كان فيه من «الأترج» مالا يحمل منه البعير غير اربع... وعندما كان في طريق العودة هبّ عليه ريح شديد وبرد قاسٍ غزير ثم اعقبه ثلج، فمات جماعة ممن كانوا معه.

واعتل المنصور بالله علة شديدة من جراء ذلك، وبعد وصوله الى المنصورية اراد عبور الحمام، فنهاه طبيبه اسحق بن سليمان «اليهودي» عن ذلك، فلم يقبل ودخل الحمام، فذهبت الحرارة الغريزية منه ولازمه الارق فأخذ طبيبه يعالج المرض دون الارق، فاشتد ذلك على المنصور، وقال لبعض خواصه:

اما في البلاد طبيب غير اسحق؟ فأحضروا اليه شاباً من الأطباء يقال له: «أحمد بن ابراهيم الجزار» فشكا اليه ما يجده من الأرق ...فجمع له اشياء مخدرة وجعلها في قارورة على النار كلفه شمّها... فنام بعد ذلك، وخرج الطبيب وهو مسرور بما فعله، فجاء اسحق ليدخل على المنصور بالله... فقيل له انه نائم فقال:

«ان كان قد صُنع له شيء منه فقد مات» فدخلوا عليه فاذا هو ميت... وهنا هبّ قواده ورجال الدولة وارادوا قتل ابن الجزار.... فمنعهم اسحق بقوله:

لا ذنب له... لقد داواه بما ذكره الأطباء... غير أنه جهل اصل المرض... وكما تعرفون انني اردت في معالجته تقوية حرارته الغريزية التي منها يكون النوم... فلما عولج بما يطفئها حصلت الوفاة».

وجاء في مصدر آخر:

أن الطبيب ابن الجزار تعمد اعطاءه السم القاتل لقتله... فهذا الطبيب كان يعمل قبل وفوده الى المنصورية في بلاط الامويين في الاندلس... ولكن هذا المصدر لا يستند على ادلة ولا يمكن الركون الى صحته... وانما الحقيقة ما ذكرناه.

الخليفة المحارب:

دخل رجل من قبيلة «كتامة» على المنصور بالله، وكان في إحدى قاعات قصره المنيف في مدينة المهديَّة يلاعب «سلحفاة» فقال:

يا مولاي... رأيت أبا يزيد صاحب الحمار يضرب برمحه باب المدينة الغربي... فاستغرق المنصور بالله في الضحك وقال:

أو فعلها؟ ... انه لن يعود ثانيةً... وغداً سوف اعلّق جثته على الباب الغربي أي في المكان الذي دقَّ رمحه فيه... فاذهب وبشّر كل من تراه عينك... ثم عاد للاعبة السلحفاة، وكأن شيئاً لم يحدث.

مسكين المنصور بالله... مات والده القائم بأمر الله، وهو يرسل نظراته إليه... مات وآثار الحزن تطغى على قسمات وجهه... ذلك الوجه الذي لم يكن يوماً من الأيام الاّ ضاحكاً مستبشراً... مات وعيناه المعلقتان به تودان ان لا تتحولا عنه... حتى تعبران له عمَّا يختلج في اعماقه من حزن وأسى لهذا الفراق المبكر... مات وهو يعلم ان دولته الفاطمية التي كرَّس حياته لها، وسهر على بناء قواعدها وأمنها واستقرارها... أصبحت على شفير الهاوية فالثورات تهب في أرجائها، والانتقاضات تعصف في بنيانها، والأنواء والعواصف تكاد أو كادت تزعزع اركانها وتدك معالمها.

مناطق عديدة انفصلت عنها واستقلت... ومدن كبرى وصغرى انضمت الى الثائرين، ورفعت اعلامها وجنَّدت رجالها للقتال... وقبائل عديدة استسلمت للثائرين دونما قتال خوفاً من السيوف المسلَّطة على الرقاب... وبعد ان فقدت كل أمل بالحماية، أو ارسال الإمدادات

والمعونات... وبين هذا وذاك، أو بين عشية وضحاها أصبحت خزائن الدولة خالية خاوية، فلا موارد، ولا ضرائب تدفع للدولة، وها هو الجيش الحارب اخذ يشكو ويتظلّم من قلة المواد والمعاش. وأنّى له أن يحصل على ما يطمح إليه، وعاصمة الدولة الفاطمية تطوقها الجيوش، وتصهل على أبوابها خيول المغيرين، وتدق ابوابها رماح الثائرين.

كل هذه المشاهد والهواجس عرضت امام القائم بأمر الله وهو على سريره يصارع الموت، ومّما زاد في آلامه تركه لهذه الدولة التي تعب باقامتها، ومغادرته هذه الدنيا، مخلفاً فيها ابنه «المنصور بالله» وحيداً... وهو لا يزال طري العود في سن الشباب... لم تعركه الايام، ولم يسبق له أن تمرّس باساليب الحكم، وادارة شؤون الدولة او خبر سياسة الرعية... كما لم يتسنَّ له أن خاض غمار الحروب او قاد الجيوش الى ساحات القتال، أو علم أسرار الحروب.

فماذا يستطيع ان يفعل هذا الشاب المدلل امام هذا الخضم الواسع من الأحداث، وانىّ له الخروج من هذه الأزمات، ومجابهة القوى العنيدة الجبَّارة التي هبت في كل جهة من دولته تشن الحروب وتعلن العصيان مهددة ومنذرة؟.

ووقف المنصور بالله صامتاً امام سرير والده البار... وقف يرنو بعطف وحنان الى الوجه الشاحب الذي اذهب المرض المفاجىء نضرته وبهاءه... فلم يتمالك نفسه من ذرف دمعة... ولم يلبث ان مسحها حتى لا يراها والده، فتضعف ثقته به... أو ربما زادت من حزنه.

أجل... شعر المنصور بالله في تلك اللحظات بأنه خسر أباً رحوماً، وقلباً حنوناً أحبه حبّاً صادقاً، وحنا عليه، ورعاه وربَّاه، ومحضه عطفه وثقته... وتمثل له الماضي بابعاده... بساعاته وايامه... يوم كان يفيء الى ظله، وهو بعيد عن مشاغل الحروب، ومؤتمرات السياسة، وقضايا الدولة وشؤون القبائل... فذلك الماضي الجميل قد تلاشى رويداً رويداً، وتبدد كما تبدد الرياح السحب والغمام.

انها صفحة من الحياة طواها الدهر الى الأبد... وذكريات من العمر ستبقى في ذهنه ماثلة كلما خلا الى نفسه، أو كلما عاد لقراءة صفحة الماضي واستعراض صورته الجميلة... وعاد المنصور بالله الى قلبه يهدىء من اضطرابه، وإلى دموعه يمنع انسكابها... وبين هذا وذاك أخذ يردد ويقول:

تلك مشيئة الله... ولا مرد لقضاء الله... فالحمد لله الذي جعل الموت حكمة من احكامه، وأمراً جارياً على عباده، تبارك اسمه... ولا حول ولا قوة الاّ به.

ويعود المنصور بالله الى عقله... يعود ليقف بعناد ورجولة وأعصاب متينة أمام الحدث الداهم... وأخيراً يخاطبه بقوله:

كلاّ سوف لا استسلم لخطوب الدهر، ولا أحني رأسي للمصائب... فأنا من أمة لم تلد الجبناء... صحيح انني وحيد في معركة الحياة... ولكني سأستمد من هذه الوحدة الرجولة والتصدي وخوض المعارك دون هوادة.. فامّا حياة عزيزة... وإمّا موت.

لقد تعلّمت في مدرسة الآباء والاجداد دروس الشجاعة والصبر على المكاره واحتمال المصاعب ومقارعة الأحداث... فهذه الدروس تقضي عليّ بان لا أتراجع ولا أجزع... وسأتكل على الله فهو المعين والملهم والقادر على كل شيء.

وخرج المنصور بعد أن طبع قبلة الوداع على جبين والده... خرج ليعد العدة للمعركة التي قرر أن يخوضها بنفسه، وكأنّ شيئاً لم يحدث... ونادى امين سره المخلص «جوذر» طالباً إليه أن يتخذ كافة التدابير دونما أية ضجة، وبكتمان شديد عن كافة الناس والأقرباء.

ما بعد القائم بأمر الله:

ذكرنا الكثير عن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي في الصفحات الخاصة بالقائم بأمر الله، وذكرنا كيف دقّ هذا الثائر الجبّار

ابواب عاصمة الدولة الفاطمية «المهديَّة»... وكيف ان القائم بأمر الله كاد يتسرب إليه اليأس والوهن، وهو يرى هذا التيَّار الجارف يندفع بقوة ليحرق كل شيء أمامه... ولولا عملية انقاذ لجأ إليها القائم بأمر الله في نهاية المطاف لانهارت دولته وذهبَ لقمة سائغة للثائر الخارجي وجيوشه المغيرة.

وغير خافٍ ان العملية كانت نداءً عاجلاً واستغاثة ارسلها الخليفة الفاطمي الى الصنهاجيين والكتاميين ودعوتها لتناسي ثاراتها واحقادها، والمبادرة بسرعة الى عقد راية الصلح، والسير معاً لانقاذ الدولة قبل فوات الأوان، ومن الواضح بمكان أن «زيري بن مناد» زعيم صنهاجة استجاب للنداء، ودعا قبيلة كتامة الى عقد الصلح، وتلبية نداء الخليفة، ثم اندفع على رأس جيوشه الى المهدية... حيث دخل في معارك عديدة مع أبي يزيد... فكانت تلك المعارك سجالاً أو بين مد وجزر، وعلى العموم فانها لم تحقق أي نصر ساحق لأي من الفريقين، ولكنها انقذت الدولة الفاطمية من السقوط، ولولا هذه التدابير الأخيرة من قبل القائم بأمر الله لسقطت العاصمة المهدية التي ذكر بأن جميع سكانها نزحوا عنها سوى حامية ابقاها القائم بأمر الله للدفاع.

ومهما يكن من أمر... فان ثورة الخوارج هذه لم تكن كباقي الثورات الأخرى التي اندلعت في شمالي افريقيا... فهي الثورة التي كانت تهب مرة في جهة، ثم تخمد لتعود الى الظهور في جهة اخرى وهي أشد عنفاً واندفاعاً. وهذا كله لم يكن مألوفاً من قبل سكان المغرب على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم... لأنه من الغرابة بمكان ان يشاهدوا ثورة تنبعث في اطراف المغرب الأقصى، ثم لا تلبث ان تنطفىء لتهب من جديد في مناطق صنهاجة وكتامة... أو في الصحراء أو في القيروان أو رقَّادة أو سوسة، أو أخيراً على أبواب المهدية، ومن ثم في الجبال حيث القلاع والحصون والمعاقل.

ان هذا الوضع أوجد جواً مكفهراً مليئاً بالتشابك والتعقيد بالنسبة للخليفة القائم بأمر الله ولزعماء القبائل الذين يحاربون تحت رايته.

ويضاف الى ذلك اوضاع «الادارسة» في المغرب الأقصى الذين كانوا في وضع غير مستقر... فكانوا يخضعون للقوة... تارة يوالون الفاطميين، وتارة يعودون الى أحضان الأمويين في الأندلس، ويرافق تحركاتهم ثورة الزناتيين التي قادها محمدبن خرز وهي كما هو واضح كانت تشكل سنداً أو رديفاً لثورة الخوارج... وأهم من كل ما ذكرناه اضطرار القائم بأمر الله الى الابقاء على عدد غير قليل من جند صنهاجة وكتامة في المدن الرئيسية للحفاظ عليها من الغارات والهجمات... ولا اذهب بعيدا إذا قلت بأن كل هذا كان من الخطط المدبرة التي سهر عليها ونفذها بدقة وعناية الامويون في الأندلس.

وجملة القول:

فان شمالي افريقيا... أو البلدان التي تحكمها الدولة الفاطمية في عهد القائم بأمر الله كانت كالأتون تغلي مراجله او النار التي لا ينطفىء أوارها، سيما وأن ليس فيها منطقة او جهة تنعم بالهدوء والاستقرار حتى العاصمة المهدية نفسها التي كانت تعاني من النزوح ومن الحصار، ومن التهديد في كل لحظة بالسقوط.

ومن الجدير بالذكر ان القائم بأمر الله مات وعاصمة بلاده مهددة بالسقوط، فأبو يزيد عاد من جديد الى ممارسة الضغط، بعد المعارك التي خاضها مع زيري بن مناد، وفي المرة التالية كان بامكانه احتلال المهدية بسهولة، ولكن حتى الآن لم يذكر احد من المؤرخين سبباً لتقاعسه، ولكنهم اعتبروه خطأً عسكرياً، وجهلاً بتقدير الأمور.

ومهما يكن من أمر... فان هذا الوضع حرَّك الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله على الخروج بنفسه لمباشرة القتال ضد الخوارج

حاملاً صفة «ولي العهد» معلناً بأنه ينفذ ارادة الخليفة القائم بأمر الله «المريض» الذي اناط به هذه المهمة... فعاهد الله والشعب الاّ يعود الى المهدية الاّ بعد استئصال الداء العضال.

وقد ذكر:

أنه اختار لمعاونته اقوى القواد والمحاربين من صنهاجة وكتامة... فنظمهم في أولية وكتائب وقسمهم الى فرق، وعقد على قيادتها الشباب المتحمسين الذين يتحلون بالإيمان والثقة... أمّا اقدامه على تسلم القيادة العامة فكان باعثاً لإذكاء الحماسة في صفوف الجند الذين عرفوا بحبهم له، مقدرين شجاعته واقدامه... ومن جهة ثانية فقد ترك لزيري بن مناد مهمة التصدي للزناتيين واطفاء لهيب ثورتهم الكبرى في المغرب الأقصى.

وهكذا انقسم الجيش الفاطمي الى جيشين... كل أخذ على عاتقه تحقيق مهمته الكبرى... فبدأت العمليات العسكرية على نطاق واسع وخاصة في جيش المنصور بالله الذي تولّى مهمة التصدي للخوارج وفق الأساليب الحديثة... فالمنصور بالله طبق وحضّ على النظام والطاعة وتنفيذ الاوامر والخطط بدقة، كما حذّر من الفوضى، والاستقلال بالرأي من قبل قواد الكتائب والفرق، وألغى الأساليب القتالية العشائرية القديمة التي كانت سائدة، والتي تأكد بأنها كانت سبب تراجع الجيوش الفاطمية في أكثر المعارك.

فالمنصور بالله... المحارب الجريء ادرك منذ اللحظة الأولى ان الجيوش الفاطمية التي يقودها لا يمكن ان تحقق أي انتصار أو تقدم إذا لم تنتزع من عقولها الأفكار القبلية البالية، وأساليب القتال القديمة.

ولم يكتف المنصور بكل هذا... بل انطلق الى تنظيم جيشه، وتقسيمه الى كتائب للهجوم... وأخرى للدفاع... وبعضها للاستطلاع، وربطها جميعها بقيادة عليا واحدة، واضعاً نصب عينيه انظمة الجيوش

الحديثة المحاربة.

هذا بالنسبة لجيش المنصور بالله، أمّا جيش الخوارج فكانت تسيطر عليه روح الفوضى والعشائرية والاقليمية... فلا خطط عسكرية مدروسة، ولا نظام ولا اطاعة... لا كتائب... ولا ألوية... ولا قواد مسؤولين أمام القيادة الرئيسية العليا... بل جيش كثيف مؤلف من عناصر مختلفة ومن قبائل شتى الف بينها حب الغزو والنهب والاستيلاء على المغانم والاسلاب.. إنه الجيش الذي يقوده رجل لا همَّ له الاَّ الوصول الى الزعامة، والسيطرة على البلدان، وتطويع القبائل، ولو أدَّى ذلك إلى قتل الآمنين والابرياء ونهب المدن وتدميرها... ولعل هذا كان من أهم الأسباب التي أدَّت الى فشله واندحاره وتبديد شمله.

ففي الحروب لا تكون الغلبة الأخيرة الاَّ للقائد الذي يحمل رسالة، أو يحارب لأجل قضية... وقد اثبت التاريخ ان الأمم التي ربحت الحروب، وحققت الانتصارات كانت تعتمد وتسلَم قيادة جيوشها الى رجال يمتلكون العبقرية والإيمان وحب الخير والجرأة والاقدام في آن واحد.. رجال يكون لهم مبادىء يعملون لها فيتجنبوا اهراق الدماء الاَّ عند الضرورة، ويكونوا رحماء بجنودهم الذين وضعوا دماءهم وحياتهم تحت تصرفهم.. وهكذا بالنسبة للسكان الذين يقعون تحت سيطرة الفاتحين، فيمنعون عنهم الأذى والنهب والتعدي، ويصونوا كرامتهم وأعراضهم ممَّا يجعلهم يشعرون بالاطمئنان وبالاعتراف بأن الفاتح الجديد ارحم من الذي سبقه، فيهرعون عندئذٍ الى خطب وده والركون الى حكمه وطاعته.

لقد كان المنصور بالله من هذا الرعيل، وربما فاقه وسبقه في أمور كثيرة... فقد ذكر التاريخ:

انه عندما دخل القيروان، خرج اليه الناس مهللين مرحبين، فطمأنهم وبادلهم الود والعواطف، وأمر باحضار كل ما يحتاجون اليه من

مواد الإعاشة والغذاء، ثم امهم بالصلاة وجلس اليهم يستمع الى شكاياتهم ويلبي حاجاتهم.

ومن القصص الطريفة التي تعبر عن اخلاقه... أنه جاء من اخبره بان في المدينة اولاداً ونسوة لأبي يزيد الخارجي... فأمر بنقلهم الى المهدية وبانزالهم في قصره حيث اوكل من يقوم باكرامهم واجراء الارزاق عليهم... وبعد مدة ارسل ابو يزيد كتاباً الى المنصور بالله يسأله ان يسلم اليه حرمه واولاده لقاء دخوله في طاعته... وحلف على ذلك اغلظ الإيمان... فسيرهم اليه مكرمين بعد ان وصلهم وكساهم، وحملهم الهدايا.

فلما وصلوا الى أبي يزيد نكث عن عهده وقال: انما وجههم اليّ خوفاً مني.

المعركة الاولى:

اختار ابو يزيد مدينة القيروان عاصمة لثورته، واتخذ منها قاعدة حربية، أو ميداناً للتدريب وتعبئة الجيوش... فمنها كان يغير على القرى والمدن في المغرب الأوسط، ويهدد وينذر المهدية... وفيما كان يعقد المشاورات والاتصالات ويوزع الاعمال، ويكرس الجهود للحرب والقتال، والقضاء على الدولة الفاطمية التي اضمر لها الحقد واعتبر القائمين عليها دخلاء وكفار يجب ازالتهم عن بلاد المغرب، وقد سبق ان ذكرنا ان احتلاله للقيروان قد تم بعهد القائم بأمر الله، وبعد ان تمكن من العودة الى الساحة بعد المعارك الطاحنة التي خاضها ضد زيري بن مناد، والتي انتهت بجلائه عن القيروان... ولكنه لم يلبث ان عاد ثانية بعد انشغال زيري المذكور بقتال الزناتيين في المغرب الأقصى.

أجل.. عندما تمَّ لصاحب الحمار احتلال مدينة القيروان ثانية فكّر في أمر ايجاد مقر سري له بعيد عن الانظار، فانتقل الى «رقادة»، وقد يكون استطاب الاقامة في هذه البلدة الجميلة الصغيرة ذات

البساتين النضرة والمياه العذبة، والهواء العليل.

فهذه البلدة عرفت في المغرب الأقصى باعتدال مناخها وطيب هوائها وعذوبة مياهها.. وكأني بصاحب الحمار اراد ان يتخذ منها مقراً دائماً يوفر له اسباب الراحة والصحة والهدوء. أمَّا جيوشه فقد اعدَّ لها خياماً وسرادق خارج اسوار القيروان. وذلك لصيانتها من الوقوع تحت الحصار اذا ما نشبت الحرب.

ولكن ابا يزيد وهو في تلك الساعات كان يعتبر ان زمن الحرب قد ولّى الى غير رجعة، فالدولة الفاطمية سوف لا يقوم لها قائمة بعد الآن، وان القائم بأمر الله قد أصبح مريضاً، وان ولي عهده المنصور بالله غير كفوءً لادارة شؤون الدولة، أو مباشرة الحرب، وان كل عمل سيقوم به يكون مصيره الفشل... وهكذا استسلم للراحة وللاطمئنان وابعد عن افكاره الهواجس... وحصر اهتمامه بارسال الامدادات الى الزناتيين، وتعزيز التحالف معهم، وتوحيد الاهداف، ومواقع القتال... وكنَّا ذكرنا انهم في تلك الأيام كانوا يخوضون حرباً مع زيري بن مناد امير صنهاجة في أطراف المغرب الأقصى.

أجل لم يكن يدور بخلد صاحب الحمار ما أعدَّه له المنصور بالله... وكيف ان فرسان صنهاجة وكتامة أصبحوا في حالة من التأهب للانقضاض عليه، وأخذه على حين غرَّة.

لقد أدخل المنصور بالله في حسابه بأن هذا الجيش الكثيف الجرَّار المخيم في ضواحي القيروان بأمرة صاحب الحمار قد لا تتم هزيمته بسرعة... وانه لا بد لذلك من مجابهته بجيش يفوقه عدة وسلاحاً وايماناً، يقوم بهجمة منظمة خاطفة تدب في صفوفه الرعب، وتدمر كيانه، وتسد عليه منافذ الهرب، ولا تعطيه الفرصة للتجمع او التأهب لخوض المعركة... وبالفعل بقي المنصور مدة تقارب من الشهر، وهو يعد هذا الجيش ويمرنه على أساليب القتال الحديث وينفخ في افراده وقادته روح

الإيمان والشجاعة، وقتال هذا الخارجي دونما رحمة... وعندما تمَّ له ذلك.. كتم امر خطته حتى عن أقرب المقربين اليه، وانطلق من المهدية باتجاه القيروان في وقت غروب الشمس.

عند آخر الليل، وصلت طلائع جيش المنصور بالله الى مشارف القيروان... فأعطى اوامره بأن ينال الجنود قسطاً من الراحة وان يتزودوا بكل ما يحتاجون اليه استعداداً لمعركة ستدوم طيلة النهار... وبعد ان انبثق الفجر اعطى المنصور اوامره لجيشه بالانقضاض على جيش الخوارج الذي كان يستسلم الى الرقاد في مخيماته غير حاسب لما تخبئه له الأيام... فهذا الجيش كان يحلم بأنه قد حقق النصر، وكان بالإضافة الى كل ذلك يأمل بأن ينطلق في الأقاليم لكي يحصل على المزيد من الغنائم والاسلاب... ولكنه لم يشعر الا والخيول المغيرة تنقض على مخيماته لتدوسها بحوافرها، وتشعل فيها النيران.

ونهض هؤلاء الجنود وهم ينفضون عن اجفانهم غبار الرقاد.... نهضوا لاطفاء النيران التي اشتعلت في كل مكان، ولكن انَىّ لهم ذلك وهذه النيران قد اخذت تلتهمهم بالإضافة الى السيوف المشرعة فوق رقابهم والتي كانت تتخطف رؤوسهم عندما يحاولون الهرب.

اَمّا صاحب الحمار فكان في رقَاده يغط في نومه غير حاسب اي حساب لمثل هذه المفاجأة المذهلة... لقد كانت الأخبار تصل اليه بأن المنصور بالله يلازم سرير والده المريض، وانها عاجزان عن القيام بأي عمل عسكري، وان الحامية الصغيرة التي اعداها لا تكفي الاّ للدفاع عن العاصمة المهدية.

أجل... انقضت جيوش المنصور بالله على خيام جيش الخوارج المنتشرة في ارجاء وسهول القيروان... انقضّت عليها كالبرق الخاطف، او كالعقبان على الطيور الصغيرة، فداست الخيول المغيرة بحوافرها

الجثث التي كان اكثرها لا يزال على فراش النوم، وهنا تلاعبت السيوف في تلك الرؤوس المستسلمة للراحة وللاطمئنان... وبعضها ذهب طعماً للنيران.... هذا بينما فريق آخر من جيش المنصور بالله رابط في الأطراف، وسدَّ منافذ الهرب، وفي غضون ساعة او ساعتين تحوَّلت تلك السهول الى بركة من دماء الخوارج فلم يكن يسمع سوى انين الجرحى، او يرى الاّ الجثث والرؤوس ملقاة على الأرض.

وأخيراً:

وصلت الانباء الى ابي يزيد فخرج من مخبأه مع حامية رقادة وقصد رقادة وفي نيته انقاذ الموقف، بالتصدي للمغيرين، والدخول بمعركة معهم... ولكن المنصور بالله كان قد اعدَّ قوة خصصها لملاقاته وأمرها بالمرابطة على أبواب رقَّادة... فلمَّا خرج ابو يزيد واجهته هذه القوة بحرابها وسيوفها... ولَّما رأى ان زمام الأمر قد افلت من يده اسلم ساقيه للريح، وولَّى هارباً مع بعض قواده واركان حربه، وجعل وجهة سيره «سوسة» وهي مدينة واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان قد احتلها ورفع اعلام ثورته على مبانيها.

أمَّا المنصور بالله فانه دخل القيروان ورقَّادة فيما بعد، وأمَّن اهلها، ووفَّر لهم الغذاء ومواد الإعاشة ثم قبض على أعوان أبي يزيد وبعضهم قد تاب وانتظم في جيشه.. ولم يمنعه كل هذا عن اعادة تنظيم جيشه واعداده للمعركة المقبلة.

ذكرت بعض المصادر التاريخية:

أن معركة القيروان انجلت قرب الظهيرة، وانها اعتبرت من المعارك الخالدة في تاريخ المغرب، وانها هي مقدمة الهزائم والنكبات لأبي يزيد

الخارجي، فقد فتحت صفحة من اليأس والهروب في حياة الثائر العنيد، وجعلته في حالة دائمة من القلق والارتباك، لا سيما وان ضحايا جيشه في تلك المعركة فاق عددها الأربعين الفاً.

أصداء الأنتصارات:

عمَّت اخبار معركة القيروان عموم انحاء افريقيا الشمالية بسرعة، وتناقل الناس الروايات عن الانتصار السريع الذي حققه المنصور على جيوش الخوارج، فعمَّ الفرح والغبطة أوساط كتامة وصنهاجة ومن يسير بركابها من القبائل، وعلى العكس اوجد حالة من الهلع والخوف لدى الزناتيين والادارسة، وهكذا بالنسبة للأمويين في الأندلس فانهم شعروا بخيبة امل وبفشل ذريع اصيبوا به بعد أن كانوا يحسبون ان بقاء الدولة الفاطمية لم يعد الاَّ اياماً معدودة... وهناك الفريق المتردد الذي اتخذ خطة الحياد من الأحداث... فهذا الفريق ساورته الرغبة والشجاعة لإعلان موقفه والإنضمام الى الدولة الفاطمية بعد هذا الإنتصار الساحق الذي حققه المنصور بالله.

أمَّا زيري بن مناد زعيم صنهاجة وقائدها... وكنا ذكرنا انه كان يخوض حرباً ضد الزناتيين ومن يعاونهم من الادارسة في المغرب الأقصى... فهذا القائد الفاطمي الذي كرَّس حياته للدولة الفاطمية تلقى اخبار المعركة بارتياح بالغ مَّما ضاعف من معنوياته وأمله وشجاعته بقرب الانتصار الأخير.

ان الحرب بين صنهاجة وزناتة كانت في تلك الفترة حرب سجال طويلة الأمد... أو قل حرب ما يسمى بالكر والفر... بدليل ان أي من الفريقين لم يستطع تحقيق أي نصر حاسم... ولكن هذه الحرب الاستنزافية انهكت او كادت تنهك خزانة الدولتين الفاطمية والأموية... وتوردهما مورد الافلاس.. ناهيك عن الضحايا العديدة

التي كانت تسقط على الساحة.

ومهما يكن من أمر... فإن بلاد الادارسة في المغرب الأقصى وكنا قد ذكرنا ذلك كانت منقسمة على نفسها ويحكمها افراد من هذه الاسرة خضع اكثرهم لنفوذ الأمويين، بعد أن ضعف أمر الفاطميين في المغرب الأقصى، ولم يكن «زيري بن مناد» بقادر على التحكم فيهم، أو فرض سيطرته عليهم، فهم في كافة الأحوال يعيشون حياة متقلبة وخاضعة للظروف وللمفاجآت، أو بلغة اصح لميزان السعود والنحوس.

أجل... كانوا تارة بين أيدي الفاطميين يرفعون اعلامهم، وينادون باسمهم... وتارة تحت سلطة الأمويين يرفعون شعاراتهم ويتلقون المساعدات منهم، ولكن هذا الوضع حكم عليه ان لا يستمر طويلاً... خاصة وان ظهور المنصور بالله بهذه القوة الكاسحة الجبارة قلب الموازين رأساً على عقب وجعلهم يحسبون للمستقبل الف حساب فيتخذون خط الرجعة، فقد ذكر أنهم بادروا الى الإتصال بالفاطميين معلنين عن ندمهم، مطالبين بالاسراع بتخليصهم من الحالة التي فرضتها عليهم القوة... ومن جهة ثانية اعلانهم عن الاستعداد للحرب وللقتال في صفوفهم.

معارك سوسة:

معركة سوسة بين المنصور بالله والخوارج اعتبرت المعركة الثانية، ولكنها لم تكن الأخيرة... بالرغم من انها لم تكن شبيهة بمعركة القيروان التي تميَّزت بالسرعة.

فقد ذكر التاريخ:

انها كانت طويلة الأمد، ومريرة وقاسية، وانها دامت اكثر من عام بين كر وفر وخمود وهبوب، فمرة ترتدي طابع الاشغال الموقت، ومرة تعود فتحتدم بقوة وعنف. وكلما حاول المنصور بالله حسم الموقف

يستقدم أبو يزيد قوى جديدة من الأقاليم البعيدة والقريبة فيزجها في المعركة وتكون عاملاً لانقاذه من الحالة المتدهورة التي فرضتها عليه حروبه وجهاده الديني المقدس.

أجل... لم يستطع المنصور بالله بالرغم من تفوق جيوشه في ميادين القتال، وسيطرته على الاجواء في كل معركة يخوضها من ان يضع حداً فاصلاً واخيراً للأساليب الثعلبية التي كان يتبعها خصمه بالتراجع حيناً وبالإحتماء وراء اسوار سوسة حيناً آخر، وخاصة عندما يرى تفوقه عليه او عندما يشعر بخيبة امله من الخطط التي ينفذها... وبعد كل هذا يعود من جديد الى اتباع طرق هجومية اعنف.. وهكذا دواليك.

وأخيراً:

ضاق صدر المنصور من هذه الأوضاع، وادرك ان الأمر قد طال، وان البقاء على هذا الوضع معناه الفشل والدمار، ففيه تحطيم الآمال، وادخال الملل واليأس الى قلوب المحاربين.

وهكذا بالنسبة لصاحب الحمار... فانه شعر في تلك الساعات بأن التذمر قد أخذ يتسرب الى صفوف قواده وجنوده من هذه الحالة التي هي ليست حرباً ولا سلماً... وهذا ما جعله يعقد العزم على وضع خطة جديدة او خديعة حربية رأى أن يحقق من ورائها انتصاراً حاسماً. فقسّم جيشه الى فرقتين: أناط بالأولى مباغتة جيش المنصور بالله بهجمة الثأر أي كما فعل المنصور بالله في القيروان، والثانية امرها بالاتجاه الى القيروان لفرض الحصار عليها ثم اقتحامها... وبذلك يكون قد قطع الطريق على جيش المنصور بالله، ووضعه داخل كمّاشة لا يستطيع الإفلات منها.

وبعد ان اتم مشاوراته، واستعداده، أمر قواده بتنفيذ الخطة، والهجوم على جيش المنصور بالله دون تراجع، ولكن المنصور بالله المتيقظ والقائد الشجاع اعدَّ لكل أمر عدته، فاستقبل الجيش المندفع

المهاجم بالسيوف والرماح، ولم يمكنه من تحقيق اي تقدم، وبعد ساعات قلائل اجبره على اتخاذ خطة الدفاع بدل الهجوم، وفي نهاية الشوط لم يبق امام الجيش المهاجم سوى التطلع نحو الطرق السالكة للفرار او للعودة الى ما وراء أسوار سوسة.

وفاته ان المنصور بالله في تلك الساعات امرَ اسطوله المرابط في المهدية بالتحرك والانطلاق الى مرفأ سوسة لإنزال فرقة «الصقالبة» الهجومية واحتلال المدينة... وبالفعل تمَّ ذلك بسرعة وبسهولة إذ أن حامية المدينة الخوارج لم يتمكنوا من الثبات او الوقوف امام الصقالبة، وهكذا غادروا المدينة باتجاه البراري والقفار.

أمَّا الجيش الذي ذهب الى القيروان فقد تلقته حراب الفاطميين المكلفين بحماية المدينة، واعملوا فيهم ذبحاً وطعناً في ساعة كان الجيش المهاجم يشكو من التعب والإرهاق ومشاق السفر وطول المسافة.

وذكر التاريخ:

أن هذا الجيش قد أبيد... وذهب افراده ضحية الجهل والغباء بأساليب الحرب... ونعود الى صاحب الحمار أبي يزيد.. فان المنصور بالله لم يعلم شيئاً عنه... وكلما ذكر عنه انه هرب مع بعض قواده باتجاه الجبال.. ولكن المنصور بالله ادرك وهو في أوج النصر أنه لم يحقق شيئاً، فبقاء أبي يزيد حيّاً معناه افساح المجال امام الافعى تسرح وتمرح وتنفث سمومها عندما تسنح لها الفرصة... ولهذا قرر اللحاق به بعد أن يعيد تنظيم جيوشه، وبعد ان يعيد الى المدن والقرى التي عانت من الحروب والدمار والهجرة حياتها واستقرارها...

ومهما يكن من أمر.. فان معارك سوسة وقبلها القيروان فتحت صفحة جديدة في تاريخ الفاطميين واعادت الى قلوب الناس محبتهم، كما قربت المنصور بالله من رعيته وجيشه، وجعلت اكثر الناس تعتقد بأنها النهاية التي لم تكن متوقعة لهذا الثائر العنيد الذي شغل الدولة

الفاطمية قرابة العشرة اعوام، فحرمها من الراحة والهدوء، وهددها بالدمار وكاد يقضي عليها لولا الاخطاء العسكرية التي ارتكبها، والمظالم التي كان يقترفها جيشه في المدن والقرى والأقاليم.

معركة القلاع والحصون الحاسمة:

أجل... نجح المنصور بالله في دك قوى الخوارج المقاتلة، وتمزيقها ارباً ارباً في معركتي القيروان وسوسة، فدبَّ الذعر في باقي القوات الثائرة التي كانت تتمركز في بعض المناطق والمدن، فركن اكثرهم الى الفرار والآخرين التحقوا بقائدهم صاحب الحمار... وهناك فرقة ثالثة التزمت جانب الهدوء فقررت العودة عن فكرة حرب غير مأمونة النتائج.

أمَّا أبو يزيد فارتد مع نفر من اصحابه كما ذكرنا الى شعب الجبال حيث المعاقل والحصون والقلاع، فبسط سلطانه وسيطرته عليها، وهي الجبال الموازية للساحل، أو الجبال الداخلية التي تمتد حتى منطقة النجود العليا.. حيث اكثر ارتفاعاً وتعقيداً، وتكثر على مقربة منها الاراضي الصخرية الجرداء، والكثبان الرملية، والاودية الجافة، والهضاب الصخرية العسيرة المسالك.

لقد التجأ أبو يزيد الى قلب تلك المنطقة البعيدة المنعزلة عن العمران، وأقام في احدى القلاع الحصينة التي عرفت فيما بعد بقلعة أبي يزيد أو قلعة كتامة، فكان منها يصدر اوامره، ويعبىء قواته ويرسل جيوشه لقطع الطرقات، والقيام بأعمال التخريب، وسلب الآمنين، وفرض الاتاوات والضرائب على السكان والقرى... وكل هذا حفز المنصور بالله على اللحاق به... وهكذا بدأت الحرب الجديدة التي عرفت في المغرب بحرب القلاع والحصون.

فمن قلعة الى قلعة، ومن حصن الى حصن... من جبل الى

وادي... بل من قمة الى قمة... تلك هي الحرب الجديدة التي فرضتها الخوارج وقائدهم صاحب الحمار على المنصور بالله، وأجبروه على خوضها أخيراً بعد تلك الانتصارات الحاسمة.

والحقيقة:

فانها الحرب التي لم يألفها احد من القواد... فكم هي شاقة وعسيرة مهاجمة هذه الحصون المنيعة، والقلاع المحصَّنة ذات الباب الواحد المغلق والاسوار المعدة للدفاع ولمرابطة المحاربين المولجين بتصويب سهامهم الى صدور المغيرين والفاتحين في عصر لم تكن تتوفر فيه الآت التدمير، ووسائل خرق الاسوار.

فها هو صاحب الحمار قد لجأ الى هذه المنطقة النائية، وها هو يوزع قواته التي كتب لها النجاة في معارك القيروان وسوسة على الحصون والقلاع والمعاقل في منطقة الجبال، ويأمرها بالمرابطة والدفاع حتى الموت مانحاً اياها حرية التصرف في القتال.

أمَّا المنصور بالله، فقد جاء الى المنطقة وتمركز في احدى الجهات، وبعد دراسة شاملة وجد ان القضاء على قوات ابي يزيد سوف لا يتم بسرعة، وأنه لا بد من اتباع مبدأ النفس الطويل.. والصبر، وفرض حصار شامل محكم على المنطقة التي يعتصم بها عدوه، لمنع وصول اية امدادات غذائية له... وكل هذا يضعف من معنوياته ويضطره في النهاية الى الاستسلام.. وهذه الخطة كلفت المنصور بالله العديد من المقاتلين الذين اناط بهم مهمة الحراسة في منطقة عسيرة المسالك، فضلاً عن قوات اخرى كانت مهمتها فرض حصار محكم على كل قلعة بمفردها.. وممَّا يذكر ان هذه الحرب الجديدة دامت قرابة ستة شهور... ففي نهايتها أخذت قلاع ابي يزيد وحصونه تستسلم الواحدة بعد الأخرى، وبعضها لم يرض المكلفين بالدفاع عنها الاَّ النزول الى خارجها لخوض معارك خاسرة... وبعد أن تمَّ للمنصور بالله اخضاع او استلام

كافة المعاقل المدافعة، زحف على رأس قوة هجومية الى قلعة ابي يزيد الكبرى فطوقها وانذره بالاستسلام او الخروج للقتال.

فلم يرد صاحب الحمار على المنصور بالله، واستمر بالاعتصام... واخيراً: وعندما شعر بنفاذ المؤونة... نزل الى ساحة القتال، وهو في حالة من اليأس وفقدان الأمل... فتلقاه المنصور بالله... ودارت بينهما رحى معركة رهيبة لم تستمر الاّ وقتاً قصيراً حيث جرح في نهايتها ابو يزيد جرحاً بليغاً في كتفه.. ممّا جعله يترك الميدان، ويركن الى الفرار باتجاه الاودية التي تنفذ الى الصحراء... فلم يشأ المنصور بالله ان يتبعه جرياً على عادته بأن لا يتبع مهزوماً.

وفي ثاني يوم أرسل بعض رجاله وراءه... فقبضوا عليه مختبئاً في احدى المغاور.. وقيل: بان احد رجاله المقربين قبض عليه، وجاء به مقيداً الى المنصور بالله وهو يطمح بأن ينال المكافأة.. ولكن المنصور امر بقتله عندما علم بأن ابا يزيد قد ربّاه وأحسن اليه وقربه منه لدرجة انه كان يعتبره كأحد اولاده.

وممّا تجدر الاشارة اليه:

أن المنصور بالله أمر بفك قيوده واطعامه والاعتناء بجروحه... وبعد ان عاد اليه الهدوء... سأله:

والآن... يا مخلّد ماذا تنتظر مني ان افعل... بعد أن وصلت الى هنا؟

فأجاب:

افعل ما بدا لك... فاني لا أطمع بالعفو، ولا اطلب الرحمة...

فقال له المنصور بالله:

هل تركن الى الهدوء والراحة، وتدخل في الطاعة... إذا عفوت عنك؟

فأجابه:

لا أعدك بذلك... وتأبى نفسي القبول بما تطلبه مني.

فقال المنصور بالله:

ولكنك ازهقت أرواحاً كثيرة من المسلمين، وقتلت الآلاف المؤلفة من الابرياء والشيوخ والأطفال والنساء، ودمرت المدن... أفلا ترى ان القصاص منك أصبح واجباً... أتذكر أنك تطاولت حتى وصل بك الأمر الى قرع باب المهدية برمحك... وبعد هذا لا أرى فيك بادرة تنم عن ندم او توبة او رجوع الى الصواب؟

فأجابه:

كل ما فعلته كان حقّاً... وتلبيةً لأوامر الله...

وهنا ظهرت على ملامح المنصور بالله آثار الغضب، وأمر بارجاع القيد الى أيدي صاحب الحمار وعاد به الى المهديَّة.

لقد اجمع المؤرخون:

بأن المنصور بالله أمر باعدام أبي يزيد... وعلّقه لمدة عام كامل على باب المهدية الغربي اي في المكان الذي دقّه برمحه... وكان ذلك تنفيذاً لقسم اقسمه بأن لا يعود الى المهدية إلاَّ ومعه رأس الرجل الذي اضرم نار الفتنة في كل مكان من أرجاء الدولة الفاطمية، وكاد يزعزع اركانها، ويقضي عليها. وكان ذلك سنة ٣٣٩ هـ.

بعد فترة قصيرة من الراحة... أعلن المنصور بالله للناس عن وفاة والده القائم بأمر الله، وطلب الى أركان دولته مبايعته حسب الوصية... ثم لم يلبث ان انتقل الى عاصمة دولته «المنصورية» التي أمر ببنائها والاستعاضة بها عن المهديَّة، وكل هذا لم يكن ليثنيه عن التفكير بشؤون المغرب الأقصى الذي اصبح شبه مستعمرة للأمويين وخاصة بعد احتلالهم «حليليت» ثم «سبتة» وبذلك تمكنوا من استلام

مفتاح منطقة « المجاز » الذي يعتبر مركزاً للانطلاق نحو عموم بلدان المغرب.

وكان في تلك الفترة « بوري بن موسى بن العافية » قد عاد الى الساحة على رأس قوة كبيرة فتمكن من قتل بعض القواد الفاطميين أمثال عبد الله بن بكّار اليغرني وغيره وأرسل رؤوسهم الى قرطبة كما أن فتوح بن محمد بن خرز كبير قواد زناتة تمكن من أسر وجوه تاهرت ووهران وارسالهم مقيدين الى قرطبة فضلاً عن قتله غيرهم من الموالين للدولة الفاطمية.

ان هذه الأحداث جعلت المنصور بالله امام اخطار جديدة... وجعلته يفكِر بضرورة اتخاذ التدابير السريعة للزحف الى المغرب الأقصى والقضاء على الثورات التي تهدد دولته... ولكن العمر لم يمهله مع كل اسف... فمات قبل ان يتمكن من تنفيذ برنامجه كاملاً.

تحركات داخلية:

المصادر التاريخية الفاطمية اجمعت على القول:

بأن المنصور بالله قبل خروجه من المهدية لقتال الخوارج... بثَّ العيون والارصاد، وأوكل الى بعض المقربين اليه مراقبة تحركات ابناء « عبيد الله المهدي » ، الخليفة الفاطمي الأول، وكان والدهم عبيد الله قد أبعدهم عن مركز الخلافة وحرمهم منها، وسلَّمها للوريث الشرعي « القائم بأمر الله ».

فهؤلاء الابناء كانوا يعتقدون بانهم قد أبعدوا عن الخلافة التي اسسَّها والدهم في المغرب ظلماً وعدواناً، وأنهم احق بها من القائم بأمر الله وولده، وانه لا بد من عودة الحق الى نصابه... وفي هذا دليل على أن عبيد الله المهدي كان يقوم بمهمة الامامة « الاستيداعية » فقط، وهي التي لا تجيز له توريثها لأحد من أولاده... بل اعادتها للإمام المستقر عندما تزول الاسباب التي اقتضت هذا الوضع

أجل... لقد كتب على المنصور بالله ان يخوض حرباً عائلية داخلية الى جانب حرب مع الخوارج... وهذه الحرب ليست من السهولة بمكان... انها الحرب بين الأسرة الواحدة الغريبة في هذه الأرض البعيدة والتي تضافرت جميع القوى على التصدي لها، وتعكير صفو حياتها.

ومهما يكن من أمر... فهذه الحقائق التاريخية قد الحنا لها، وكشفنا عن وقوعها وابعادها، وهي في الواقع تلقي الأضواء على أهم قضية في تاريخ الفاطميين كانت ولمّا تزل مدار تعليقات وأخذ ورد... وأنه لممّا يلفت النظر ان اولاد عبيد الله المهدي بعد وفاة والدهم قد طمس على تاريخهم، ولم يعد يسمع لهم أي ذكر في بلاد المغرب، ولكن بعض المصادر ترجح انهم انتقلوا الى مصر، وبعضهم يذكر انهم سكنوا بلاد الشام.

وممّا تجدر الإشارة اليه أن أمر ابعادهم عن مناصب الدولة العليا، أو إشراكهم بادارة اعمال الدولة الفاطمية قد ظلّ قائماً حتى عهد الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله... فهذا الخليفة جاء بحفيد عبيد الله المهدي «الياس» وقربه إليه وسمّاه ولياً للعهد وقيّماً وكفيلاً لولده الوحيد «الظاهر لاعزاز دين الله»... وكأني به قد اعاد اليه منصب جده عبيد الله.

ان «الياس» هذا كما ذكرنا عنه في حينه لعب دوراً بارزاً على مسرح الحياة السياسية في مصر ودمشق بعهد الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر... وأخيراً انتهى نهاية عجيبة.

انتصارات منصورية في صقلية:

صقليّة... جزيرة كبرى تقع في البحر الأبيض المتوسط.. عرفت في التاريخ بانها احدى القواعد البحرية الهامة للامبراطورية الرومانية... وقد ظلّت تحت حكم الرومان حتى سنة ٢١٢ هـ عندما فتحها الأغالبة على يد «أسد بن الفرات» قاضي القيروان، وكان ذلك بعهد المأمون

العباسي، ويذكر التاريخ:

ان أسداً فتحها بجيش قدر عدده بتسعمائة فارس، وعشرة آلاف رجل... عرفت هذه الجزيرة بكثرة خيراتها، وطيب مناخها، وبمدنها الثلاثة والعشرين، ذات الحصون والجبال والقلاع... وكانت عاصمتها يومذاك «بلو».

هذه الجزيرة التي بهرت بموقعها الحربي انظار الفاطميين منذ أن حطوا رحالهم في المغرب، قرروا ان لا يتخلوا عنها، وان يولوها كل عناية لتبقى اعلامهم خفاقة في سمائها... ولكن بعد وفاة القائم بأمر الله قامت فنفضت عن جفونها غبار الهدوء والاستقرار، وأخذت العناصر المختلفة والطوائف المتنازعة تتفق فيما بينها وتوحد صفوفها وتتأهب لخوض المعركة ضد العدو المحتل، وخاصة بعدما تسربت الانباء الى أوساطها عن قيام الثورات العنيفة في انحاء الدولة الفاطمية، وعن ضعف المقاومة، وانهيار المعنويات.

هذه الاستعدادات وما رافقها من تحركات داخلية، اهابت بالمنصور بالله الى الإهتمام بالجزيرة الكبرى وبأوضاعها، فأعطاها المزيد من اهتمامه وتفكيره... وكنا ذكرنا بان الخليفة عبيد الله المهدي قد سنَّ نظاماً خاصاً للجزيرة يقضي بأن يكون تحت امرة حاكمها وبصورة دائمة جيش احتلال قوي يدفع الأخطار عند اللزوم ويرد الهجمات الخارجية ويثبت دعائم الأمن، ويحبط المؤآمرات والحركات الثورية الداخلية.

وبعد المهدي ظلَّ هذا القانون ساري المفعول، وظلّت الجزيرة تنعم بالهدوء والاستقرار، وبعد وفاة القائم بأمر الله علم ابنه المنصور بكل ما يجري في قاعدته البحرية الفاطمية، وجاء من أكّد بأن اموالاً اموية وفيرة تبذل على نطاق واسع لاغراء السكان بالثورة واعلان الاستقلال... فاتخذ اجراءً سريعاً اصاب فيه المرمى وكان موفقاً بتنفيذه... فعيَّن صديقه وأحد قواده المجربين «الحسين بن علي الكلبي»

حاكماً على الجزيرة، وأميراً على البحر والاسطول، وزوّده بكافة الصلاحيات والامكانيات.

وهذا القائد بالاضافة الى اخلاصه للفاطميين... كان قائداً بحرياً عظيماً، وخبيراً بحروب البحار، وقيادة الاساطيل... فهرع الى الجزيرة وتسلّم منصبه وهو يحمل التفويض بالتصرف كما يشاء حتى بمهاجمة الجزء الغربي من بلاد الروم، وبمدنهم الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

ويذكر التاريخ:

ان الحسن ما كاد يتسلّم مركزه في القاعدة المذكورة حتى اندلع نزاع طائفي ديني في الجزيرة بين المسلمين والمسيحيين، ثم تفاقم النزاع الى اشتباكات مسلحة بين الطرفين كان يسقط من جرائها اعداد كثيرة من القتلى في كل يوم.

ولمّا سيطر المسلمون على الموقف، اغتنم المسيحيون الفرصة، وشكلوا وفداً من رجال الدين ذهب الى روما والقسطنطينية، وهناك اتصلوا بأباطرة الدولة البيزنطية، وأطلعوهم على ما يلقون ويتعرضون اليه من الضغط، وكيف ان الحاكم الفاطمي المسلم يتحيَّز لابناء دينه ويمدهم بالاعتدة والسلاح والمواد للقضاء على المسيحيين... فاستجاب الامبراطور قسطنطين الثامن لنداء رجال الدين، وأمر على الفور بتجهيز حملة بحرية قويَّة تكون مهمتها حماية المسيحيين وانقاذهم ممَّا هم فيه.

ولكن الحسن الكلبي الساهر على مصالح شعبه علم بما يعده الروم، فجهز اسطوله وسار على رأسه الى المكان المقرر... وهناك دارت بينه وبين الروم معركة بحرية وصفت بعنفها، وفي نهايتها تمكن الحسن من السيطرة على الموقف واحباط الخطط المعادية، واغراق اكثر السفن الرومية قبل ان تتمكن من انزال جنودها على الشاطىء.

هذا الموقف جعل امبراطور الروم يتراجع عن قراره، فأرسل الى الحسن وفداً للمفاوضة وطلب الصلح... وكانت النتيجة ان وقع معاهدة صلح مع الحسن لمدة خمس سنوات... ولكن هذه المعاهدة نقضت بعد مدة قصيرة، فعادت الأمور الى سابق عهدها... ومن الجدير بالذكر ان الجيش الفاطمي في تلك المعركة غنم غنائم كبرى، وتسلَّم مبالغ وفيرة من المال فدية للأسرى الذين وقعوا في قبضة الفاطميين... مما كان له أكبر الفوائد بمساعدة جيوش المنصور بالله التي كانت تخوض الحرب ضد الخوارج.

أجل... لم يتوقف الحسن الكلبي يوماً عن حرب الروم خاصةً بعد ان نقضوا المعاهدة، فكان يوجه اسطوله في كل مناسبة الى مدن جنوب «ايطاليا» فيغير عليها ويدمرها وينهب موجوداتها... وكان في كل معركة يضيف نصراً الى نصر غير مبالٍ باشتراك اباطرة الدولة الرومية البينزنطيين الشرقيين الذين سارعوا الى معاونة اخوانهم الغربيين... وكل هذا لم يمنعه من اخضاع «قلورية» واعادتها الى الحكم الفاطمي.

في تلك الأيام اعتمد الامبراطور الثامن قسطنطين خطة تهدف الى تحقيق انتصارات في المغرب على الفاطميين تعادل انتصاراته التي حققها في المشرق على العباسيين والحمدانيين... ولكنه اصطدم بالأسطول الفاطمي الجبَّار وبأميره الحسن الكلبي الذي عرف بخبرته بفنون القتال البحري... وكل هذا احبط مساعيه، وجعله في شك من تحقيق أي انتصار في صقلية.

وجملة القول:

فان تعيين الحسن الكلبي لهذا المنصب الخطير.. كان اختياراً موفقاً، ومن المصادفات الجميلة ان انتصارات الحسن اقترنت بانتصارات المنصور بالله، وجعلت الدولة الفاطمية في وضع تميَّز بالقوة والمعنوية.

ومهما يكن من أمر... فان أسرة الكلبيين صنَّفها التاريخ بانها من

أعرق الأسر التي خدمت الدولة الفاطمية فقد توفّر الآباء والابناء والأحفاد على بذل جهودهم لتعزيز وجودها، وصيانة هيبتها، ولم يفكر احد منهم بالخروج على أوامر الخلفاء او الانتقاص من شأنهم، وظلّت علاقاتهم الودية قائمة حتى آخر عهد الفاطميين في مصر.

لقد نظر الى هذه الأسرة بانها اسرة مالكة وهكذا كان يلقبها الروم... وذلك بفضل الجاه والعز والثراء ووجود اسطولها وجيشها القوي الذي وقف بوجه اكبر امبراطورية في ذلك الوقت. أمّا المعارك التي خاضها ابناء الحسن الكلبي ضد الروم بعهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله فهي خالدة ومكتوبة على صفحات التاريخ بأحرف من ذهب.

الخوارج ثانية:

بعد عام من وفاة ابي يزيد... قام ولده الصغير «فضل» فدعا من جديد الى الثورة، وكأنه لم يكفه المئتا الف مقاتل الذين سقطوا ضحية ثورة والده... ومن الواضح انه تمكن من التأثير على بعض المعارضين والناقمين من قبيلة «زناته والبربر» بفضل الأموال الأموية التي أرسلت اليه. فاندفع على رأس قواته يحتل القرى والمدن في منطقة كتامة معيداً الى الاذهان ذكرى والده، معاهداً الناس على اكمال دوره واتمام رسالته.

ولكن الخليفة المنصور بالله رأى ان هذه الحركة الجديدة لا تستحق الإهتمام الزائد، ولا تستدعي خروجه للتصدي لها... فأرسل ولي عهده «المعز لدين الله» وكان له من العمر سبعة عشر عاماً... وعندما التقى بفضل طلب اليه الاستسلام... ولّما لم يفعل بادره بالحرب... وفي المعركة الأولى تمكن من قتله.

وبموت هذا الأخير... ختمت حياة هذه الاسرة الخارجية الكيدادية، وطويت صفحتها وشعاراتها الى الأبد.

إن انتصارات المنصور بالله الفاطمي تلك، سجلها التاريخ على صفحاته بأحرف من الفخار والعزة وسيبقى هذا التاريخ يرددها ويذكرها مشيداً بمزاياه، وعبقريته، وشخصيته الفذة التي ضربت الرقم القياسي بالايمان والصبر والشجاعة.

الشخصية الجبّارة:

لا بد لنا من القول... ونحن في صدد التحدث عن شخصية المنصور بالله الجبّارة... بأن هناك جوانب كثيرة من حياة الخلفاء الفاطميين ظلّت مغلقة رغم الأقوال والتعليقات والآراء، فالباحثون والمهتمون لم يعيروها ما تستحقه من اهتمام، واغفلوا معها دراسة اوضاع العصر الذي عاش فيه هؤلاء الخلفاء، والاسباب التي أدَّت بهم الى اتخاذ بعض المواقف والصفات التي كانوا يتحلون بها، وحالة المجتمع التي كان عليها في ايامهم.

وقد يكون من الوفاء والامانة أن لا نقف حيث وقف غيرنا، فللفاطميين شئنا أم أبينا تاريخ حافل بالبطولات، غني بالمواهب والعبقريات، وبرأيي كان لهم أفكار ومبادىء سبقت العصور وتقدمت الازمنة، وعندما أرادوا تطبيقها والدعوة اليها لم يسلموا من السنة الناس، وكان من أمرهم أن وقعوا تحت كابوس التهم، وتعرضوا لأقسى انواع النقد.

ان الواجب العلمي يقضي علينا بأن نقول:

بأن الابداع - أي ابداع، في أي مجال لا تكون له قيمة او مكان الاَّ إذا بالغ في التعبير عن روح العصر، أو اهتدى الى استخلاص الحقيقة من مواضعها دونما اية بلبلة او اضطراب.

فالقول:

بأن انسانا عبقرياً موهوباً... وان عبقريته وموهبته النابعة من ذاته

لا تحيط به وبما حوله من مشاكل وأحداث فنكون قد حكمنا على الإنسان بالجنون والانحراف... لأن كل عبقرية أو موهبة لا تكتسب الرفعة والامتياز إلاَّ إذا عبَّرت عن روح العصر الذي نمت فيه وعاشت في كنفه.

من هنا نجد:

ان عظماء الانسانية سواء كانوا أنبياء أو رجال فكر أو قادة شعوب لا يظهرون إلاَّ في عصور الاضطراب والمحن، وعندما تختلط السبل وتتضارب المفاهيم، ويتكاثر دعاة الهداية الزائفة وغربان الضلال والشؤم. إذن فليست العبقرية وليدة العدم او المصدر الملوّث بالهذيان وبالأفكار الغريبة الشاذة... انها المعجزة الانسانية التي تأتي في أوقات وظروف تقتضيها الحاجة.

وقد اثبتت الوقائع... ان عظماء التاريخ لا يظهرون على مسرح الحياة إلاَّ بعد ان تسبقهم الحركات... وتهب في مجتمعهم العواصف، ويزداد التخبّط في مجاهل الحياة... فيكون العبقريِ عندئذٍ في طور التكوين، ثم يأتي بعد ان يستفحل الشر ليمثل دور الوعي والنضوج وتغيير حركة التاريخ.

والآن:

عندما نضع الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله امام واجهة التاريخ، ونمر بتاريخ حياته، وندرس ما حققه وما فعله في السنين القصيرة التي عاشها فلا نستطيع إلاَّ أن نقول:

بأن عبقريته التي برزت على مسرح ذلك العصر، وابداعه وخلقه وانجازاته كانت وليدة حاجة ذلك العصر الجاهم بالإضافة الى متطلبات دولته التي كانت في مهب الرياح.

أجل... لم يترك له والده القائم بأمر الله دولة زاهرة موطدة

الأركان ناعمة البال... بل ترك له دولة تتقاذفها التيارات والانواء، وتهدد امنها ووجودها الثورات... وعندما نعلم ان عاصمتها كانت تحت الحصار والتطويق يقرع أبوابها الثائرون برماحهم، ويهددون سكانها بالموت... أضف إلى ذلك استنفاذ الموارد، وفقدان المتطلبات، وهجرة الانصار وعزلة الاتباع... إذا عرفنا كل هذا وغيره هان علينا الأمر وسهل اصدار الحكم... فالمنصور بالله في تلك الساعات كان بمفرده... لا يملك إلاَّ الارادة والشجاعة والعقل... فهبَّ من عرينه يتصدَّى للخصوم واضعاً نصب عينيه صورة عن الواقع الذي يفرض عليه ان لا يتراجع... وهكذا استطاع بقوة ارادته وشجاعته وصبره ان يسحق المؤآمرة في الداخل والخارج في سلسلة من المعارك الطاحنة التي تجلَّت فيها عبقريته وخبرته بأساليب القتال والكر والفر... ومرت سبعة أعوام عليه وهو خارج عاصمة ملكه، بعيد عن أهله...في خلالها لم يذق طعم الراحة واخيراً:

وطَّد دعائم مملكته، وأخضع الثائرين، وأشاع في عموم البلاد الأمن والرخاء والاستقرار... ولم يمد الله بعمر المنصور بالله... بل لم يمنحه الفرصة الكافية لتنفيذ منهاجه الذي رسمه وقرَّر تطبيقه، ولعل ذلك من سوء حظ الشعب المغربي في الدرجة الأولى.

قد يكون من الواضح بمكان... ان ولي عهده المعز لدين الله كان يمتلك طاقة من العبقرية والذكاء والرجولة... ولكني اقول وأنا انحني امام عظمة المنصور بالله... انه كان أعظم خليفة نشأ في الأسرة الفاطمية سواء اللاحقين او السابقين منهم.

وإذا كان عبيد الله المهدي يعتبر المؤسس الأول للدولة الفاطمية... فان المنصور بالله اعتبر المنقذ لتلك الدولة... ولم يكن التشييد بأهم من الانقاذ.

مدينة المنصورية:

ذكر التاريخ:

بأن مهمات الحرب والقيادة لم تحل دون قيام المنصور بالله بأعمال الانشاء والعمران... وقد عرف عنه ولعه الشديد بالتشييد والزخرفة وتخطيط المدن والطرق واقامة الحدائق والملاعب ودور العلم والمساجد.

وممّا يجب ان يشار إليه... أنه اتخذ قراراً وهو في ساعة احتدام المعارك بينه وبين الخوارج بالاستعاضة عن المهدية بعاصمة جديدة تحمل اسمه... فكان يرى بأن العاصمة لأية دولة يجب ان تكون بعيدة عن البحر... لأنها في كافة الأحوال تكون عرضة للأخطار المتأتية من الاساطيل البحرية. وكان قد درس وأقرّ المكان الذي اختاره للعاصمة الجديدة، وكان يسمّى «صبَره» وهو على مقربة من مدينة القيروان... فاستقدم وهو في القيروان المهندسين والخبراء ووضع الحجر الأساسي للعاصمة «المنصورية» وأمر ان يكون لها سوراً كبيراً وخمسة أبواب هي:

الباب القبلي، والشرقي، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب خاص بدخول وخروج الجيش سمّاه «باب الفتوح».

ثم بنى قصر الخلافة وسمّاه قصر «الهداية» وجلب له المياه من مكان بعيد، كما خطّط للمنتزهات والحدائق، والشوارع والميادين... كما أقام مسجداً تابعاً للقصر، وجلب له الرخام من مدن الروم... وبعد ان تمّ كل هذا نقل اسواق القيروان الى المنصورية... ولم يمضِ سوى عامين حتى ازدهرت التجارة والصناعة، وسارت في طريق التقدم والازدهار فانتقل اليها الأغنياء والتجار والصناع ورجال الأعمال.

وممّا تجدر الإشارة اليه أن المنصورية، ظلّت العاصمة الأولى للدولة الفاطمية حتى وفاة الخليفة المنصور بالله، وبعد تسلُّم المعز لدين الله أيضاً ظلّت محافظة على طابعها كعاصمة للدولة، وبعد ان انتقل المعز

لدين الله الى الديار المصرية واتخذ من القاهرة المعزّية عاصمة جديدة لدولته، حافظ نائب الخليفة «بلكين بن زيري بن مناد» على المنصورية وتحوّلت بعهده الى مدينة انموذجية في كل ما في هذه الكلمة من معنى.

كلمة رثاء:

لا نستطيع ونحن في صدد كتابة تاريخ المنصور بالله ان نغفل كلمة الرثاء أو البيان الذي اذاعه ابنه المعز لدين الله على الناس في المغرب اثر وفاته... بالنظر لما تضمن من بلاغة وعاطفة ورقة... وهذا هو:

الله أكبر... الله أكبر... لا اله إلاّ الله... الله أكبر... الله أكبر... شأناً... وأعظم سلطاناً... وأوضح أياتٍ وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده، أو تروم تحديده... خالق السموات والأرض ومالكها ومدبرها... الفرد الصمد... الواحد الاحد... الذي لا شريك له ولا ند... الخالق القدير... الرحمن الغفور... النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه... المتقن كل شيء صنعاً، الموسع كل شيء رزقاً... المحيط بكل شيء علماً.

أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأفوض اليه وأتوكل في كل أمر عليه... وأشهد ان لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له... وأشهد ان محمداً ﷺ خيرته من عباده ونجيه من بريته وصفوته من المتطهرين، ورسوله الى كافة العالمين، وبعثه بالامامة الى الثقلين ليبلغ حجة الرب، ويوضح محجة الحق فأدّى رسالة الله، ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار الى ان ادال الله الحق على الباطل، والهدى على الاضائل.. محمد ﷺ أفضل الصلاة وأزكاها وأكملها وأنماها وأخلدها وأبقاها... وعلى المهديين من عترته الكرام الأبرين الذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للامامة، وأكّد بوحيه للرسل محبتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله اياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلي أفضل الوصيين، وعلى سيدة النساء فاطمة خامسة

اصحاب الكساء صلوات الله عليهم وعلى اميري المؤمنين المهدي بالله، والقائم بأمر الله سيدي الورى وامامي الهدى اللذين اعلن الله بهما دعوة الحق، وأنطق بهما الايمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين وأزهق بحقهما باطل المدعين وأكاذيب المتخرصين، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين... صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما.

اللهمَّ اخصص الامام الفاضل، والوصي العادل، والبر الفاضل، والغيث الوابل صاحب الآيات - المعجزات، والعزائم النافذات... الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات... الصابر في البأساء والضراء حتى طهَّر الأرض من جبابرة الأعداء.

عبدك... ووليك ونجيك وصفيك أبا الطاهر المنصور بك والمتوكل عليك والمفوض اليك... العامل بما يرضيك ويقرب اليك، ويزلف لديك... الذي فجعتنا، وأوحدتنا ببعده، وأفردتنا منه وأوحشتنا فقبلت دعاءه، وأجبت نداءه، وجمعت بينه وبين احبته في مستقر جنتك، وسعة رحمتك.

ان القلق، وشدة الحرق عليك يا ابتاه... يا سيداه... يا اسماعيلاه... يا أبا الطاهر... يا بحر علوم الائمة الطاهرين الهداة المهديين... يا بقية أبناء الرسول... وأبناء الوصي... والطاهرة البتول... يا امام الائمة... ومفتاح باب الرحمة... يا سراج الهدى، وشمس الورى، ومجلي الطخياء... يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة.

عظم والله علينا المصاب بك... وحلَّ البلاء... وعدم العزاء لفقدك... وقصرت الألسن عن ادراك احصاء شمائلك، وتعداد مناقبك.

فوحق الذي اختصك بكرامته، وحباك بجزيل عطائه، وشرفك بأبوة رسوله لولا ما أوعزت إليَّ به، وأكدته عليَّ من القيام بحق الله، والذب عن أمة جدك رسول الله، واستنقاذهم من غمرة الجهالة، وبحار

الضلالة، ومهاوي الفتن، ومعاطب المحن... وما تقرَّر عندي ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولائمة الهدى... لضربت على وجهي سائحاً في البلاد... قالياً للمهاد... راضياً ببلغة من الزاد الى أن يلحقني الموت سريعاً بك... فأفوز بقربك ورحمة ربك.

لكنني فكرت ونظرت وتدبرت فلم أرَ لي وجهاً استوجب به درجتك واللحاق بشرفك، سوى الصبر والاحتساب، فتجلدت وصبّرني ربي فصبرت، وغلب عليَّ اليقين فأمسكت.

وأقول:

إنّا لله وإنّا اليه راجعون... ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم... والحمد لله على ما أبلى... والشكر على ما أولى.

«المعز لدين الله»

شخصيات مغربية في خدمة الدولة الفاطمية:

لا ريب في أن التنظيم الداخلي لأية دولة.. لا يسير في الدروب المستقيمة إلاَّ بعد ان تستقر الدولة، وتثبت دعائمها، وتهدأ العواصف من حولها، وتصبح في مأمن الهجمات الخارجية والثورات العدوانية الداخلية التي تثيرها العناصر المناهضة والمعارضة لأساليب الحكم... وهذا التنظيم يبدأ عادة في وضع الأسس التي يقوم عليها نظام الادارة في الدولة وما يتفرع عنه من الوظائف المختلفة، والمناصب العليا والصغرى صاحبة المسميات التي تتفق مع اختصاصياتها.

والدولة الفاطمية عندما قامت في شمالي افريقيا... وقفت في مآزق حرجة، وخضعت لتيارات جارفة، وخاضت معارك رهيبة، وتصدّت لانتفاضات وثورات داخلية عنيفة... فكان عليها ان تقطع اشواطاً بعيدة حتى تصل الى الأمن والاستقرار، وتوطيد الأركان.

ومن الطبيعي أنه في تلك الفترة لم يتهيأ للخلفاء الفاطميين أو لأحد

منهم ما أراده من الأعوان المخلصين، والرجال المجربين... فكان عليهم ان يقبضوا بأنفسهم على السلطان، ويتسلموا الصلاحيات والاختصاصات، ويصرفوا أمور دولتهم بما يتلاءم وعقولهم وأفكارهم. فأشرفوا على جميع النشاطات سواء الكبيرة منها أو الصغيرة، وليس معنى ان الخليفة كان يقوم بكافة الأعمال بمفرده... كلاّ... بل كان يستعين ببعض من يثق به من الشخصيات ممن تقدموا للخدمة، وأعلنوا عن اخلاصهم، وهكذا وضعوهم في مجال التجربة واختبار مدى كفاءتهم واخلاصهم..

أجل... هكذا كان.. فمن الثابت ان نظام الوزارة لم يدخل في تلك الأيام في اطار الدولة الفاطمية وخاصة في عهود الخلفاء الثلاثة الأوائل: عبيد الله المهدي، والقائم بأمر الله، والمنصور بالله... ولكن عندما جاء الخليفة الرابع المعز لدين الله، وتمَّ له ارساء قواعد دولته في عموم المغرب، وبعد ان تمَّ لقائده جوهر الصقلي فتح مصر نرى انه اناط بجوهر الصقلي امر الحكم بمفرده مدة تقرب من الأربعة أعوام بينما بقي هو في المغرب يحكمها بمعاونة بعض القوّاد دون ان يسمّى احداً منهم وزيراً أو يعطيه صلاحيات واسعة... ومن المؤكد ان جوهر ابقى كل شيء في مصر على حاله وخاصة نظام الادارة والقوانين التي كانت سائدة منذ أيام الأخشيديين حتى قدوم المعز لدين الله... فكان اول تدبير قام به اعفاء جوهر الصقلي من الخدمة، وتجميد نشاطه... وكأني به خاف من اتساع نفوذه واراد أن يتجنب مأساة أبو عبد الله الشيعي التي وقعت بعهد الخليفة الأول عبيد الله المهدي.

ومهما يكن من أمر فان ابعاد جوهر عن الواجهة لم يكن ليقف امام الحاجات الملحة التي اقتضتها الدولة الكبرى فاستعان ببعض الشخصيات الأخرى امثال يعقوب بن كلّس، وعسلوج بن الحسن وأناط بهم مسؤوليات وصلاحيات الوزارة... وكان هؤلاء وغيرهم من الشخصيات

الذين هاجروا الى المغرب، والتحقوا بخدمة الدولة الفاطمية، فأدوا لها أقوم الخدمات... وكان لهم الفضل الأكبر باشادة الدعائم في بلاد المغرب...

وبالتأكيد ان بعضهم قام باصلاحات داخلية وعمرانية، وساهم باستقرار الحالة العامة كالحفاظ على الأمن، وتنظيم الحياة الاقتصادية... وعندما نعلم ان بينهم العديد من القواد العسكريين الذين خاضوا المعارك وقادوا الجيوش... يهون علينا القول:

بان الدولة الفاطمية كانت مدينة بوجودها لهم... ويدخل في عدادهم القواد الذين ينتسبون الى قبائل كتامة وصنهاجة وزويله والى بعض رجال صقليَّة... فعلى اكتافهم قامت الدولة الفاطمية وبهم حاربت وانتصرت.

وقد يكون من الوفاء للتاريخ ان نأتي على موجز لتاريخ هؤلاء المغربيين الذين ولدوا في عهد الدولة الفاطمية الأول، وابان حكم الخلفاء الثلاثة: المهدي والقائم والمنصور، ونستثني من بينهم كلاً من القائدين الكبيرين «جوهر الصقلي» فاتح مصر، و«جعفر بن فلاح» فاتح بلاد الشام... فهذان القائدان افردنا لكل منهما تاريخاً مستقلاً.. ذكرنا فيه اعمالهما وما قاما به من حروب سواء في المغرب أو في المشرق.

«الحسن بن علي الكلبي»

للحسن بن علي الكلبي تاريخ طويل، قد لا تفي به الصفحات... هو رأس الأسرة الكلبيَّة، والصديق المقرَّب للمنصور بالله الفاطمي.

لم يذكر التاريخ يوم ولادته... ولا أي شيء عن صباه ونشأته... وكل ما عرف عنه انه تولَّى الحكم في صقلية بعهد الخليفة الفاطمي المنصور بالله كما ذكرنا، وان المعز لدين الله عندما تولَّى الخلافة سنة ٣٤٢ هـ كان الحسن الكلبي على رأس حاكمية صقلية.

طلبه المعز لدين الله الى المهديَّة مرتين وأبقاه على مقربة منه بعد أن تيقّن من ازدياد نفوذه وقوته، وأخيراً اشرك شقيقه «عمَّار» معه بالحكم تفادياً لأية انتفاضة في المستقبل ضد الدولة.

خاض معارك بحرية عديدة ضد الروم، واستولى على بلدان كثيرة منهم، ومن الواضح انه أدخل الرعب الى قلوبهم ولم يترك لهم سبيلاً ينفذون منه.

عين ابنه للقيادة في المعركة الكبرى، كما عيَّن عمَّار ابنه في هذه المعركة التي انتهت بقتل القائد «مانويل» قريب الامبراطور - الرومي... ومن الجدير بالذكر ان الحسن بن علي الكلبي مات من شدة الفرح عندما كان يستقبل الجيوش المنتصرة العائدة من القتال... وكان ذلك سنة ٣٥٢ هـ.

نُظر الى أسرة الكلبيين وكأنهم ملوك... واشتهر منها كل من أحمد ابن الحسن والحسن بن عمّار... وبعد انتقال الدولة الفاطمية الى مصر، استخدم الخلفاء الفاطميون العديد من افراد هذه الاسرة في الوظائف والقيادات... وممَّا تجدر الاشارة اليه أن أفراد هذه الأسرة ظلُّوا على ولائهم للفاطميين حتى آخر يوم.

«جبر بن القاسم»

مغربي عاصر الخليفة المنصور بالله وعمل تحت امرته... قدم مع المعز لدين الله الى مصر... فأصبح موضع ثقته... وكان متفوقاً في علم الادارة والاقتصاد... لم يذكر التاريخ الفاطمي شيئاً عن حياته، واغفل ولادته ووفاته بالرغم من أنه صنفه في الدرجة الاولى بين رجالات الدولة، وللدلالة على ذلك: أن الخليفة الخامس العزيز بالله كان يعهد اليه بالنيابة عنه عندما يغادر عاصمة ملكه وينيط به مهمات رئاسة الدولة.

وقد ذكر:

ان الرسائل كانت ترد باسمه، وتقرأ على المنابر وخاصة عندما خرج العزيز بالله الى قتال افتكين والقرامطة.

كان يشرف بنفسه على أمور الخراج، وقد ساهم بوضع النظام الاقتصادي للدولة... ذلك النظام الذي طبق بعهد المعز لدين الله والعزيز بالله، وكفل الحياة الطيبة والمزيد من الازدهار والرفاه للدولة. وكان يعاونه في مهمته كل من: «الحسن بن تأييد الله» و«عبد الله بن خلف المرصدي» و«علي بن عمر العدّاس».

«برجوان - أبو الفتوح»

قيل أنه من «الصقالبة»... ولا يوجد في التاريخ ما يدل على أصله... وكل ما عرف عنه انه كان عبداً خصياً تربَّى في قصور الخلفاء الفاطميين في المغرب... ثم جاء فيما بعد مع الخليفة الرابع المعز لدين الله الى مصر. فظلَّ قائماً بخدمتهم حتى عهد الحاكم بأمر الله.

وفي تلك الفترة سطع نجمه... سار في بدء حياته سيرة حسنة... ووقف بعناد في عهد الحاكم بأمر الله بوجه «الحسن بن عمَّار» الكتامي صاحب النفوذ الواسع في الدولة الذي كان يتعصب للمغاربة ضد المشارقة.

عهد اليه بقيادة الجيوش الفاطمية بالشام، فأبلى البلاء الحسن، وانتصر على الروم في أكثر من معركة ممَّا اضطرهم في النهاية الى طلب الصلح.

ذكر:

أنه قتل بأمر من الحاكم بأمر الله بعد أن وصل به الأمر الى حد التدخل في شؤون الأسرة الفاطمية الداخلية وكان ذلك سنة ٣٩٠ هـ.

كان محباً للأدب والموسيقى ومطالعة الكتب وتربية الخيول.

شجرة الامامة الفاطمية:

رأينا ونحن نكتب الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب ان نضع مصوراً يظهر فيه بوضوح كل ما يهم الباحث الاطلاع عليه من تاريخ هذه الاسرة وتسلسل أئمتها وتاريخ ولادتهم ووفاتهم... وخاصة موضوع الامامة «الاستيداعية» التي اضطلع بها «عبيد الله المهدي» وهذه القضية اهم موضوع في تاريخ الفاطميين.

«الخلفاء الفاطميون العشرة»:

الرقم المتسلسل	اسم الخليفة	تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة	سنين الحياة	تاريخ تسلمه الحكم	مدة الحكم	مقر الخلافة
١	عبيد الله المهدي	٢٥٩	٣٢٢	٦٣	٢٩٧	٢٥	المغرب
٢	القائم بأمر الله	٢٧٩	٣٣٤	٥٥	٣٢٢	١٢	المغرب
٣	المنصور بالله	٣٠٢	٣٤١	٣٩	٣٣٤	٧	المغرب
٤	المعز لدين الله	٣١٩	٣٦٥	٤٦	٣٤١	٢٤	مصر
٥	العزيز بالله	٣٤٤	٣٨٦	٤٢	٣٦٥	٢١	مصر
٦	الحاكم بأمر الله	٣٧٥	٤١١	٣٦	٣٨٦	٢٥	مصر
٧	الظاهر لاعزاز دين الله	٣٩٥	٤٢٧	٣٢	٤١١	١٦	مصر
٨	المستنصر بالله	٤٢٠	٤٨٧	٦٧	٤٢٧	٦٠	مصر

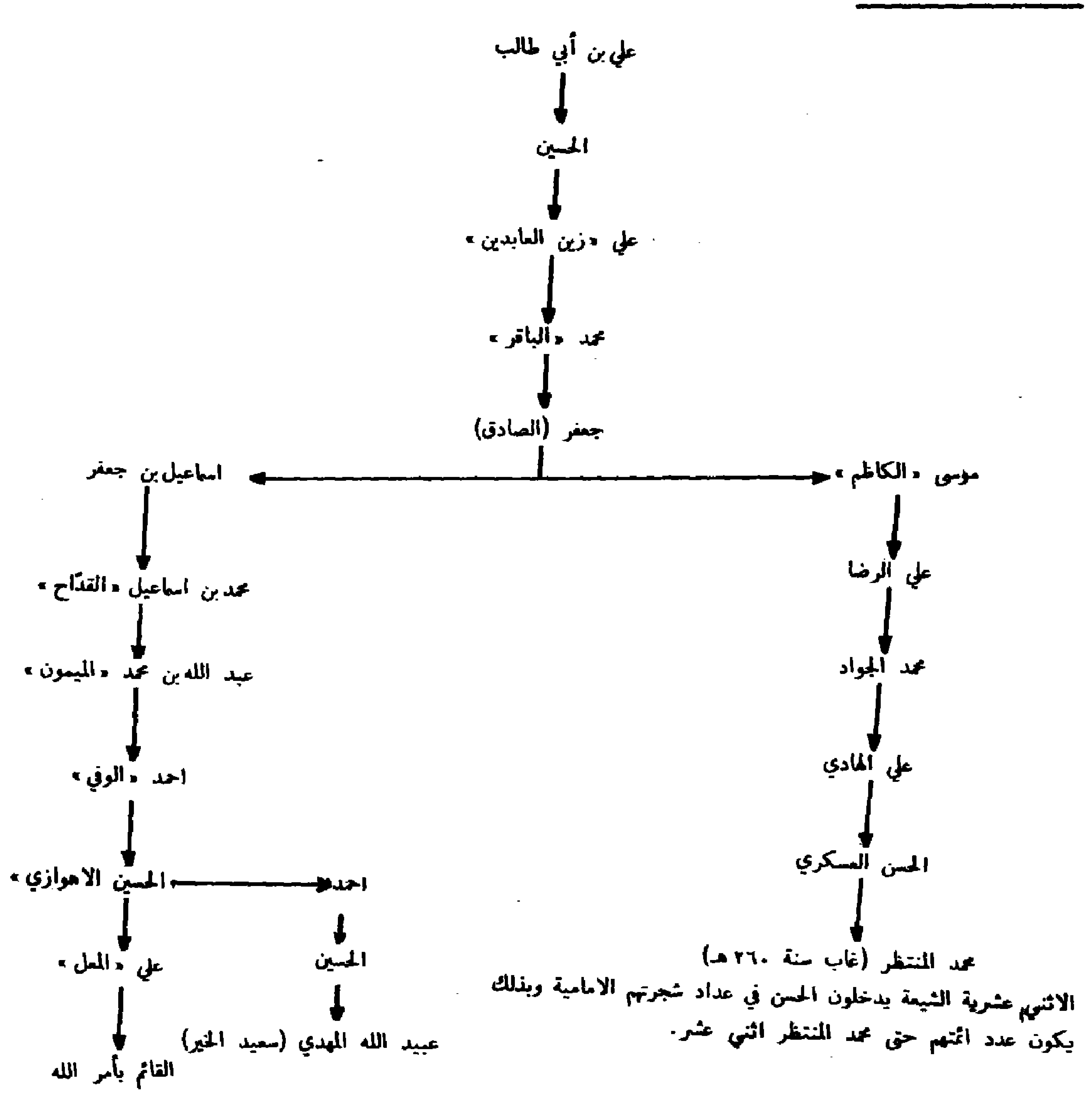
بعد المستنصر بالله وقع ما يشبه الانقلاب في الدولة الفاطمية... إذ تسلّم الخلافة ابن المستنصر بالله الاصغر، وأبعد عنها الوريث الشرعي «نزار» بتخطيط ومؤآمرة قائد الجيوش الأفضل الجمالي وهو خال

المستعلي... وقد ظلَّ قائماً بشؤون الخلافة ومن بعده ولده الآمر بأحكام الله، ومن بعدهما اربعة من النواب الذين لا ينحدرون من أسرة الامامة.

٩	أحمد المستعلي	٤٦٧	٤٩٥	٢٨	٤٨٧	٨	مصر
١٠	الآمر باحكام الله	٤٨٧	٥٢٤	٣٧	٤٩٥	٢٩	مصر

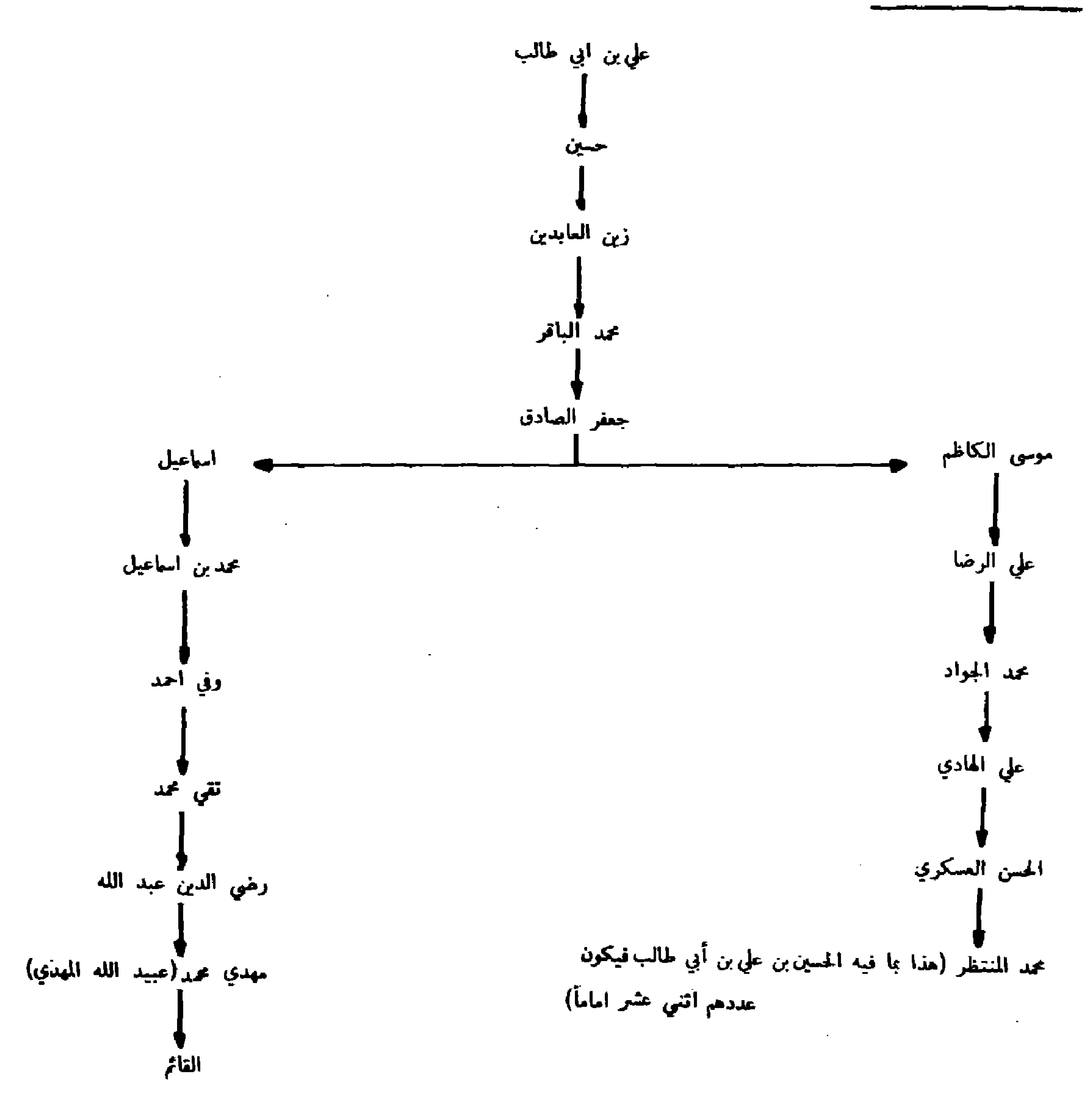
الوكلاء الاربعة هم: الحافظ لدين الله ٥٢٥ - ٥٤٤، والظافر بأمر الله ٥٤٤ - ٥٤٩ والفائز بنصر الله ٥٤٩ - ٥٥٥، وآخرهم: العاضد لدين الله ٥٥٥ - ٥٦٧.

شجرة النسب الفاطمية
المستعلية والمؤمنية والدرذية:



الاثنيم عشرية الشيعة يدخلون الحسن في عداد شجرتهم الامامية وبذلك يكون عدد ائمتهم حتى محمد المنتظر اثني عشر.

شجرة النسب الفاطمية الآغاخانية:



الامامة وفروعها:

هذه الصفحات الأخيرة من كتابنا عن الامامة ليست ببعيدة عن الموضوع، بل نراها ضرورية ونحن في صدد كتابة تاريخ فرقة كبرى منها... فقد جاء في المصادر التاريخية:

ان عدد فرق الشيعة الامامية اثنان وثمانون فرقة... ومن المشهور: ان الأمة الاسلامية افترقت الى سبع وسبعين فرقة، ولا يدخل في هذا العدد من بادوا او اندمجوا في غيرهم. وهذه اهم الفرق التي نراها جديرة بالبحث:

أ - الحنفيَّة:

١ الكيسانية، ٢ الأبي هاشمية، ٣ الراوندية، ٤ الحارثية، ٥ البيانية، ٦ الكربية، ٧ الحميرية، ٨ العميرية.

ب - الحسنية:

١ المغيرية، ٢ المنصورية، ٣ المحمدية.

ج - الزيديَّة:

١ الجارودية، ٢ السليمانية، ٣ التبرية، ٤ اليعقوبية.

د - الجعفريَّة:

١ الخطابية، ٢ الموسوية، ٣ النصيرية، ٤ المباركية، ٥ الناووسية، ٦ المحمدية، ٧ المفضلية، ٨ المعمرية، ٩ الميمونية، ١٠ البزيغية، ١١ الباقرية، ١٢ الشميطية، ١٣ العمارية، ١٤ القطيعيّة، ١٥ الهشامية، ١٦ الزراريّة، ١٧ اليونسية، ١٨ الشيطانية، ١٩ الاسحاقية، ٢٠ الاثنا عشرية.

هـ - الاسماعيلية:

١ المستعلية او الطيبية، ٢ الداؤدية، ٣ السليمانية، ٤ النزارية، ٥

المؤمنية، ٦ القاسمية (الآغاخانية) ٧ الدروز، ٨ القرامطة، ٩ الخسرويه.

و - فرق اخرى:

١ الأبو مسلمية، ٢ الفاطمية، ٣ المزدكية، ٤ العيسوية، ٥ المزوائية - الصائبية - او المانوية، ٦ الخرمدينية ٧ الهشامية.

بعد هذا العرض... نرى انه من الفائدة بمكان اعطاء موجز عن تاريخ كل فرقة ليكون القارىء الكريم على اطلاع تام ولتصبح لديه فكرة عن الموضوع.

أ - الحنفيَّة:

هم على العموم اتباع محمدبن عليبن أبي طالب المعروف «بابن الحنفيَّة» وهي احدى زوجات الامام علي، وهؤلاء كانت لهم الصدارة في مجال العمل السياسي بعد مقتل الحسينبن علي في كربلاء سنة ٦١ هـ. وقد تفرعت من الحنفية الأم فيما بعد فرق عديدة اهمها:

الكيسانية:

هذه الفرقة ظهرت بعد الثورة التي أشعلها المختاربن أبي عبيد على عامل الزبير في الكوفة، ومن الجدير بالذكر ان هذه الفرقة اعتبرت محمدبن الحنفية «المهدي المنتظر».. وعندما مات محمد اعتقد اتباعه بانه لم يمت وانه في الغيبة والاستتار، وسيعود ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً... واضافوا:

بانه مقيم في جبل «رضوى» مع أربعين من حججه وجميعهم احياء يرزقون. ومن الطريف ان شاعرهم «كثيربن عزَّة» يعزز هذا القول عندما يقول:

الا ان الائمة من قريشٍ ولاة الحـــق اربعـــة سواءُ

علـيٌّ والثـلاثـة من بنيـه	هم الاسبـاط ليس بهم خفـاء
فسبـط سبـط ايمـانٍ وبرٍّ	وسبـط غيبتـه كربـلاء
وسبـط لا يـذوق الموت حتّـى	يقود الخيـل يتبعهـا اللواء
تغيَّـب لا يرى عنهم زمـانـاً	برضوى عنـده عسل ومـاءُ

الأبي هاشمية:

هذه الفرقة قالت بامامة محمد بن الحنفية وبولده «أبي هشام» من بعده، وبعد موته انقسمت الى فرقٍ عديدة:

فمنهم من ساقها في اخيه علي ثم في ابنه الحسن بن علي، ومنهم من زعم ان اباه قبل ان يموت بأرض السراة وكان منصرفاً من الشام اوصى الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس... ومحمد هذا اوصى الى ابنه ابراهيم الملقب بالامام.. أمَّا ابراهيم فأوصى الى أخيه عبد الله بن الحارثية.

من الواضح ان أبا هاشم تنازل عن الامامة طوعاً لمحمد بن علي ابن عبد الله بن عباس وذلك بعهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الله مدعياً ان ليس بين العلويين من يصلح لاقامة الدعوة العلوية، او تبوؤ منصب الامامة، وقد ظلت هذه الفرقة على اخلاصها للعباسيين والتنكر لابناء عمومتهم الحسينيين، حتى تّم قتلهم على يد ابي جعفر المنصور العباسي، فانضووا بعد ذلك تحت لواء الدعوة الاسماعيلية.

ان عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح اوصى قبل موته لاخيه عبد الله بن ابي جعفر الملقب بالمنصور، وبعده انتقلت في ولده بالنص واحداً بعد آخر... وهذه الفرقة كانت تنادي بهم ارباباً.

ومّما تجدر الاشارة اليه ان ابا هاشم باغتصابه الخلافة من بني عمه الحسينيين وتنازله عن الامامة للعباسيين قد اضاع على العلويين فرصة

الاستيلاء على الخلافة من الامويين، كما ساعد على تفككهم، من جهة، ومن جهة ثانية مكن العباسيين من قلب الدولة الاموية، والاستئثار بالخلافة.

الراوندية:

فرقة تفرعت من الحنفيّة، وقالت بان ابا هاشم اوصى بالامامة الى محمد بن علي بن العباس في مدينة دمشق ومما تجدر الاشارة اليه ان هذه الفرقة ساهمت بابعاد الحسينيين، ومهّدت لقيام العباسيين، كما افسحت المجال امامهم للوصول الى مركز الخلافة الاسلامية.

الحارثية:

من الفرق الحنفيّة ايضاً... قالت: ان ابا هاشم اوصى بالامامة الى عبد الله بن معاوية الذي ينتسب الى ابي طالب والد علي.

امّا عبد الله بن الحارث الذي تنتسب اليه. فهو من اهل المدائن. وقد اوجد فرقة خاصة به، ثم انضمّ اخيراً الى عبد الله بن معاويه... ومن الجدير بالذكر ان الفرقتان هما: الحربية والجناحية.

البيانيّة:

فرقة حنفيّة الاصل قالت: بان الامام القائم المهدي هو ابو هاشم، وسيرجع فيما بعد، ولا وصي بعده، ولكن «بيان بن سمعان» ادّعى انه الخليفة بعده، فقبض عليه وصلب سنة ١١٩ هـ.

الكربيّة:

هم اصحاب ابن كرب وحمزة بن عمّار البربري... وقد زعموا ان محمد بن الحنفيّة لم يمت، وانما هو في كهف الغيبة والاستتار. وسيعود ليملأ الارض عدلاً... ومن المؤكد ان حمزة هذا قد ادعى فيما بعد ان محمد بن الحنفية هو الله، وانه هو النبي. وقد ظهر من هذه الفرقة رجلان لهما شأن كبير هما: صائد وبيان.

الحميرية:

فرقة من الحنفية قالت بان محمد بن الحنفية غائب ومقيم في جبل رضوى بالحجاز، وسيعود... ومن الجدير بالذكر ان السيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ هـ ادعى انه نائبه والقائم مقامه... ويقول:

سنـــــين واشهر ويرى برضوى	بشعـــب بـــين انمـــار وأسد
مقـــيم بـــين ارامٍ وعـــين	وحفـــانٍ تروحُ خـــلال ربُـــد
تراعيهـــا السبـــاع وليس منهـــا	مـــلاقيهنّ مفـــترساً بجـــدِّ
امَنّ بـــــه الردى فرتعنَ طوراً	بـــلا خوفٍ لـــدى مرعـــى وورد

العميرية:

فرقة انشقت من البيانيّة بعد موت ابي هاشم، وبعد ادعاء بيان بن سمعان بالخلافة، ومّما تجدر الاشارة اليه انها نادت فيما بعد بخلافة عمر بن بيان العجيلي.

ب - الحسنيّة:

الحسنية فرقة شيعية امامية تنسب الى الحسن بن علي بن ابي طالب وولده فيما بعد، وكانت تعتبرهم ائمة، ومن هذه الفرقة تفرّعت فرق عديدة اهمها:

المغيرية:

نَصّب نفسه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف «بالنفس الزكيّة» اماماً ما بين سنتي ١٠٠ الى ١٤٥ هـ وزاد على ذلك بانه «المنتظر» ولما يتجاوز التاسعة عشر من عمره، وكان ينشر هذه الافكار ويبشر بها المغيرة بن سعيد العجلي، الذي ادعى النبوّة فيما بعد.

فلما قتل «النفس الزكية» العباسيون، قال اتباعه انه في الغيبة وسيعود... ومما تجدر الاشارة اليه ان خالد القسري قتل المغيرة حينما

سمع بامره وذلك سنة ١١٩هـ.

المنصورية:

فرقة تفرعت من الحسنية وقالت بامامة ابي منصور العجلي الذي ادعى انه خليفة محمد «النفس الزكية» وانه قد اوصى له بالامامة قبل استتاره.

المحمديّة:

فرقة تفرعت من الحسنية اتباع محمد بن عبد الله «النفس الزكية» ومن الواضح ان هذه الفرقة بادت وانتهى امرها بعد مقتل المغيـرة بن سعيد العجلي على يد خالد القسري الذي احرقه بالنار لانه ادّعى النبوّة.

ج - الزيديّة:

فرقة امامية شيعية قالت بامامة الحسن بن علي بن ابي طالب، وبأبنه المعروف بالحسن المثنّى، وأخيراً بابنه زيد الذي تنتسب اليه هذه الفرقة.

ان هذه الفرقة قالت: في بدء امرها بامامة الحسن، ثم بالمثنى ثم بعبد الله ثم باخيه ابراهيم ثم باسماعيل ثم بابراهيم طباطبا.

ومن الجدير بالذكر ان البيوت العربية التي انضمت الى هذه الفرقة هم: بنو طباطبا، والرسيُّون،، وبنو المطوق، وبنو تج، واسم رئيسهم الحسن، وولده الهادي الذي اقام امارة له باليمن، وبنو الاذرع، وولد الداعي الى الحق بطبرستان، وولد الحسن بن زيد اصحاب الامارة في الديلم، وولد الناصر في اليمن وغيرهم.

ومن ائمة هذه الفرقة «محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي» النفس الزكية وقد مرّ ذكره، وهذا الرجل خرج من الحجاز مدعياً انه المهدي، فأرسل اليه المنصور العباسي جنده فقتلوه، وبعد مقتله عهد اتباعه الى

اخيه ابراهيم بالامامة، فقام في البصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي، فوجه اليهما المنصور عساكره وقتلهما... وكان جعفر الصادق قد اخبرهما بذلك ونصحهما بالاخلاد الى السكينة.

وذهب البعض من هذه الفرقة الى القول:

بان الامام بعد النفس الزكيّة هو: محمد بن القاسم بن علي بن عمر، وهو اخو زيد بن علي، وكان قد اعلن في الطالقان بفارس انه الامام، فقبض عليه المعتصم العباسي وسجنه الى ان مات في سجنه.

وقال آخرون:

أن الامام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي اشترك مع ابراهيم بن عبد الله في قتال جيش المنصور العباسي، ويذكر أنه ادّعى الامامة بعده، واليه انتسب صاحب (الزنج) فيما بعد.

ثم قال آخرون:

ان الامام بعد محمد بن عبد الله هو اخوه «ادريس» الذي فَرّ الى المغرب ومات هنالك، فقام بعده بالامر ابنه ادريس الثاني الذي اختطّ مدينة «فاس» المغربية، وكان من عقبه ادارسة المغرب الذين لعبوا دوراً مهماً بعهد الفاطميين... وأخيراً انقرضوا.

ومهما يكن من امر فان الامامة الزيدية كانت اوضاعها غير منتظمة، وقد قام فيها اشخاص لم يراعوا تسلسل الامامة ومنهم:

الداعي الذي ملك طبرستان وكان يعرف بالحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل، وكان له اخ اسمه محمد اعلن عن امامته بالديلم، ومن هؤلاء الناصر الاطروش وهو: الحسن بن علي بن عمر، وعمر هو اخ زيد بن علي..

ان الفرقة الزيدية لا تزال حتى الان سائرة على النهج الامامي، وكان لها لسنين خلت دولة في اليمن... وآخر ائمتهم هو الامام «بدر» الذي اطاح به وبملكه انقلاب عسكري. وممّا تجدر الاشارة اليه ان اربعة

فرق اخرى تتفرع من الزيديّة وهي:

السليمانية او الجريرية:

من الفرق الزيدية اتباع سليمان بن جرير الزيدي الذي قال: بان الامامة يجب ان تكون شورى، وليس بالنص.

التبريَّة:

هذه الفرقة الزيدية تتبع الحسن بن صالح بن حي، ويوجد لديها بعض اجتهادات تميزها عن الزيدية الام.

اليعقوبيَّة:

فرقة زيدية من اتباع رجل اسمه «يعقوب» سمّى نفسه اماماً ومجتهداً.

د - الجعفرية - الموسوية:

فرقة كبرى من الشيعة تنتسب الى جعفر بن محمد الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، وقد قالت بامامة موسى الكاظم بن جعفر الاصغر وعارضت الاسماعيلية التي قالت بامامة اسماعيل الابن الاكبر لجعفر الصادق.

ومن هذه الفرقة تفرعت فرق عديدة كان لها شأن واهمية واهمها:

الخطابيَّة:

هذه الفرقة الجعفرية انشقت عن امها وسارت وفق تعاليم وارشادات داعيها «ابو الخطّاب».. وهو المسمَّى «محمد بن زينب الاسدي» - «الأجدع» احد تلاميذ الامام جعفر.

ومن الجدير بالذكر انه اتبع سبيل الغلاة الباطنيين، وكان يقول بألوهية جعفر والائمة من ولده، وقد ذكر ان جعفر طرده من حضرته وامر اتباعه بان ينبذوه ولا يتحدثوا اليه.

بعد موته، وذكر أنه قتل... انضمت فرقته تلك الى الا عيلية.

الموسوية:

فرقة جعفرية امامية قالت بامامة موسى الكاظم وبأولاده من بعده حتى اخرهم «محمد بن الحسن» الثاني عشر الذي دخل في الستر، وما زال اتباعه ينتظرون عودته.

النصيرية:

فرقة شيعية جعفرية «باطنية» قيل ا تنتسب الى «نُصير» غلام الامام علي بن ابي طالب، وقيل الى «محمد بن نُصير البصري النميري» وهو احد دعاة الامام «الحسن العسكري» المنحدر من سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأشهر دعاتها: «الحسين بن حمدان» والمنتجب العاني، والملك بختيار، والامير حسن المكزون.

ومما تجدر الاشارة اليه ايضاً انها تقول بامامة اثني عشر اماماً من ولد علي مروراً بجعفر الصادق وابنه موسى الكاظم... هذه الفرقة تحمل الآن اسم «العلويَّة» بدل النصيرية.

المباركية:

سية جعفرية تنتسب الى مبارك مولى اسماعيل بن جعفر... جدير بالذكر انها قالت بامامته.

الناووسيَّة:

فرقة جعفرية تفرّعت من الخطابيَّة، فقالت ان جعفر لم يمت، وانه حي وسيعود... ومن هذه الفرقة تفرّعت فرق عديدة اخرى.

المحمديَّة:

فرقة جعفرية انفصلت عن الخطابية وقالت بامامة محمد بن جعفر الصادق.

المفضليَّة:

فرقة جعفرية انفصلت عن الخطابيَّة. مؤسسها هو المفضل بن عمر الجُعفي احد تلاميذ جعفر بن محمد الصادق ورفيق ابي الخطاب... هذه الفرقة انضمَّت فيما بعد الى النصيرية وكوَّنت غلاة الباطنية.

المعمرية:

من الفرق الجعفرية التي انفصلت عن الخطابية، ولكن آثارها طمست وبادت منذ ولادتها.

الميمونيَّة:

فرقة جعفرية قالت بامامة جعفر بن محمد الصادق، وبعد موته قادها «ميمون الفارسي» وهو من الغلاة ويذكر بعضهم انها اندمجت فيما بعد بالاسماعيلية. ولكن لم يتحقق ذلك.

البزيفيّة:

فرقة جعفرية انفصلت عن الخطابية بعد موت ابي الخطاب. وقد ذكر انها توقفت عند امامة جعفر بن محمد الصادق. ولم تقل بامامة احد من ولده... ومن المرجح انها بادت او انضمت الى الفرق الامامية الاخرى.

الباقريّة:

فرقة قالت بامامة محمد بن علي الباقر الامام الخامس من علي بن ابي طالب. وتوقفت عند هذا الحد قائلة بانه سيعود ليملأ الارض عدلاً.

الشميطيّة:

فرقة من الجعفرية قادها يحيى بن شميط زاعماً ان الامامة لمحمد بن جعفر الصادق، وليست لاحد من ولده بعده ومن الجدير بالذكر ان يحيى ادعى الامامة لنفسه بعد ذلك.

العمّارية:

فرقة من الجعفرية ساقت الامامة بجعفر بن محمد الصادق. تولّى قيادتها الداعي عمّار وولده عبد الله وكان أفطح الرجلين، ولهذا اطلق عليها اسم الأفطحية. اما عبد الله هذا فمات في عهد والده.

القطعيّة:

فرقة تفرعت من الجعفرية وساقت الامامة بجعفر بن محمد الصادق، ثم قطعوا اي المنتسبين اليها بموت ولده موسى الكاظم زاعمين ان الامامة من بعده هي لمحمد بن الحسن بن علي بن موسى الرضا.

الهشاميّة:

فرقة جعفرية قالت بامامة جعفر بن محمد الصادق. داعيها الاكبر هو هشام بن سالم الجواليقي، وكان يذهب باعتقاداته الى الباطنية والى التجسيم او ما يُسمَّى بالحلولية الملحدة. ويبدو انها بادت او دخلت في عداد فرقة اخرى فيما بعد.

الزرارية:

فرقة جعفرية سارت وراء زرارة بن اعين وكان من فرقة الابطحية وكانت تقول بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وبالوقوف عنده.

اليونسيّة:

من الفرق الجعفرية ايضاً داعيها الاكبر هو يونس بن عبد الرحمن القمي، وكان على مذهب القطعية التي قطعت بموت موسى الكاظم بن جعفر.

الشيطانية:

فرقة تفرعت من الجعفرية.... قادها محمد بن النعمان الملقب بالشيطان... اعتقد بامامة جعفر بن محمد الصادق وبابنه موسى من بعده

ثم توقف منتظراً عودته.

الاسحاقية:

فرقة جعفرية قادها اسحق بن زيد بن الحارث، وكان من اصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب... وكان يقول: بان لعلي بن ابي طالب شراكة بنبوءة محمد.... وبشّر بالاباحية والتعطيل والالحاد.

الاثنا عشرية:

هي الفرقة الشيعية الام التي تقول بامامة اثني عشر اماماً كما ذكرنا اولهم علي بن ابي طالب وآخرهم محمد بن الحسن (المهدي المنتظر). ويدخل في عدادهم «الحسن بن علي».

اتخذت الفقه الجعفري دستوراً لحياتها الدينيّة.... ولا يمكن اعتبارها من الفرق الباطنية.

هـ - الاسماعيلية:

ذكرنا في كتابنا «العزيز بالله - قاهر القرامطة وأفتكين» تفصيلات عنها وعن الفرق التي انبثقت عنها.... فيرجى الرجوع للكتاب المذكور.

و - فرق اخرى:

تتمة للبحث رأينا ان نعرض اسماء فرق اخرى بعضها امامية، وبعضها لا تمت للامامية بصلة، واكثرها باد، واصبح في عالم النسيان.

الأبومسلمية:

فرقة قالت بألوهية أبي مسلم الخراساني ثم حفيده فيروز من بعده.

الفاطمية:

فرقة انشقت عن الابي مسلمية وقالت بزعامة فاطمة بنت ابي مسلم

الخراساني.

المزدكية:

فرقة من المجوس... دعت الى الشيوعية المتطرفة... مؤسسها مزدك وهو من اقطاب مجوس فارس.

العيسوية:

مؤسسها ابو عيسى وكان يهودياً امياً يحترف الخياطة في اصفهان... ادّعى انه المسيح وكان ذلك بعهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان.

المزدانية - الصابئة - المانديـة:

فرقة فارسية الاصل شيوعية المبدأ من اتباعها ابو مسلم وسندباد، وقد اصبحا فيما بعد من الشيعة.

الخرمدينية:

هي فرقة من المزدانية.

الهشاميّة:

فرقة قالت بامامة هشام بن الحكم الذي مات بعهد البرامكة، وتعتبر من الفرق المجسّمة الحلولية الباطنية.

هذا ونضرب صفحاً عن تعداد الفرق التي انبثقت من الخوارج والمعتزلة والمرجئة او اليزيدية لان بعضها لا يدخل في عداد الفرق الامامية، ولان اكثرها قد باد ولم يبق له اثر.

تفسيرات:

من المعلوم انه ولد لعلي بن ابي طالب ثلاثة اولاد: الحسن والحسين من زوجته فاطمة بنت محمد، ومحمد من زوجته الحنفية.

ونبدأ بالحسين اولاً فنقول:

الحسين هو الابن الثاني للامام علي قتل في كربلاء... اولاده: علي

الاكبر قتل بالطف ولا عقب له. وجعفر لا عقب له. وعبد الله قتل صغيراً بالطف ولا عقب له، اما علي الاصغر فهو زين العابدين. وهم من امهات متفرقة.

اما علي بن الحسين زين العابدين فقد ولد له حسن وحسين ولا عقب لهما، ومحمد وعبد الله وأمهما ام ولد، وزيداً وعمراً وعلياً ومحمد الاوسط ولا عقب لهم. وعبد الرحمن وحسيناً الاصغر وسليمان والقاسم ولا عقب لهم ايضاً. وهؤلاء عددهم ثلاثة عشر ذكراً اعقب منهم ستة وهم:

محمد المكنّى بأبي جعفر وعبد الله، وزيد وعمر وعلي والحسين الاصغر. وولد له محمد الباقر وهو اب جعفر الصادق، وعبد الله وامهما «ام ولد» اما ابراهيم وعبيد الله فلا بقية لهما وهكذا علي وامهم ام ولد ايضاً. فمن محمد الباقر وابنه جعفر تسلسلت الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر. ومنه تسلسلت ايضاً الاثني عشرية نسبة الى ولده الاصغر موسى الكاظم وقد ذكرنا ذلك.

وذكر انه من ولد علي بن الحسين: زيد ومنه عيسى ويحيى واليهما تنتسب الزيدية.

ومن محمد بن الحنفية ابو هاشم الذي تفرعت منه فروع كثيرة وبالنسبة للابن الاكبر الحسن بن علي فلم يعقب له سوى ولدان هما: الحسن وزيد. فأولاد الحسن هم: محمد وعبد الله وحسن وابراهيم وجعفر وداؤد. فولد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن محمد وهو الذي قتل بالمدينة، وابراهيم المقتول في البصرة قتلا سنة ١٩٤٥ هـ بامر جعفر المنصور العباسي. وموسى بن عبد الله الذي كان بالديلم ونزل بالامان على يد الفضل بن يحيى بن برمك ثم سجنه هرون الرشيد العباسي ومات في السجن. وسليمان الذي قتل في وقعة فخ، وادريس الاصغر الذي فرّ الى بلاد المغرب، وفيها عقبه وعقب اخيه سليمان.

فولد محمد بن عبد الله بن الحسن المقتول بالمدينة عبد الله الاشتر وهو المعقب من ولده، قتل بكابل، وعلي اخذ في مصر وسجن في سجن المهدي حتى مات، والحسين بن محمد قتل بفخ وطاهر وابراهيم لا عقب لهما.

وولد ابراهيم بن عبد الله بن الحسن وهو المقتول بالبصرة حسن، وولد حسن بن ابراهيم عبد الله ومات متغيباً ومحمداً وابراهيم.

وولد يحيى بن عبد بن الحسن محمد.

وولد سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المقتول بفخ محمداً وفرّ الى المغرب، وولده هناك.

وولد ادريس الاصغر بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وهو الذي سار الى المغرب، وغلب على موضع منه في ايام المنصور، فدس المنصور اليه شربة على يد احد الاطباء فقتله.... ادريس بن ادريس ولد بالمغرب وامه بربرية وعقبه بالمغرب.

وولد الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي ابا جعفر عبد الله وعلياً مات في سجن المنصور مع ابيه وحسناً درج ولا عقب له، والعباس وطلحة ابنا الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي «انقرضا».

وولد ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي اسماعيل واسحق ويعقوب ومحمداً الذي يدعى بالديباج الاصغر، وعلياً، اعقب الحسن وولد الحسن محمداً وابراهيم.

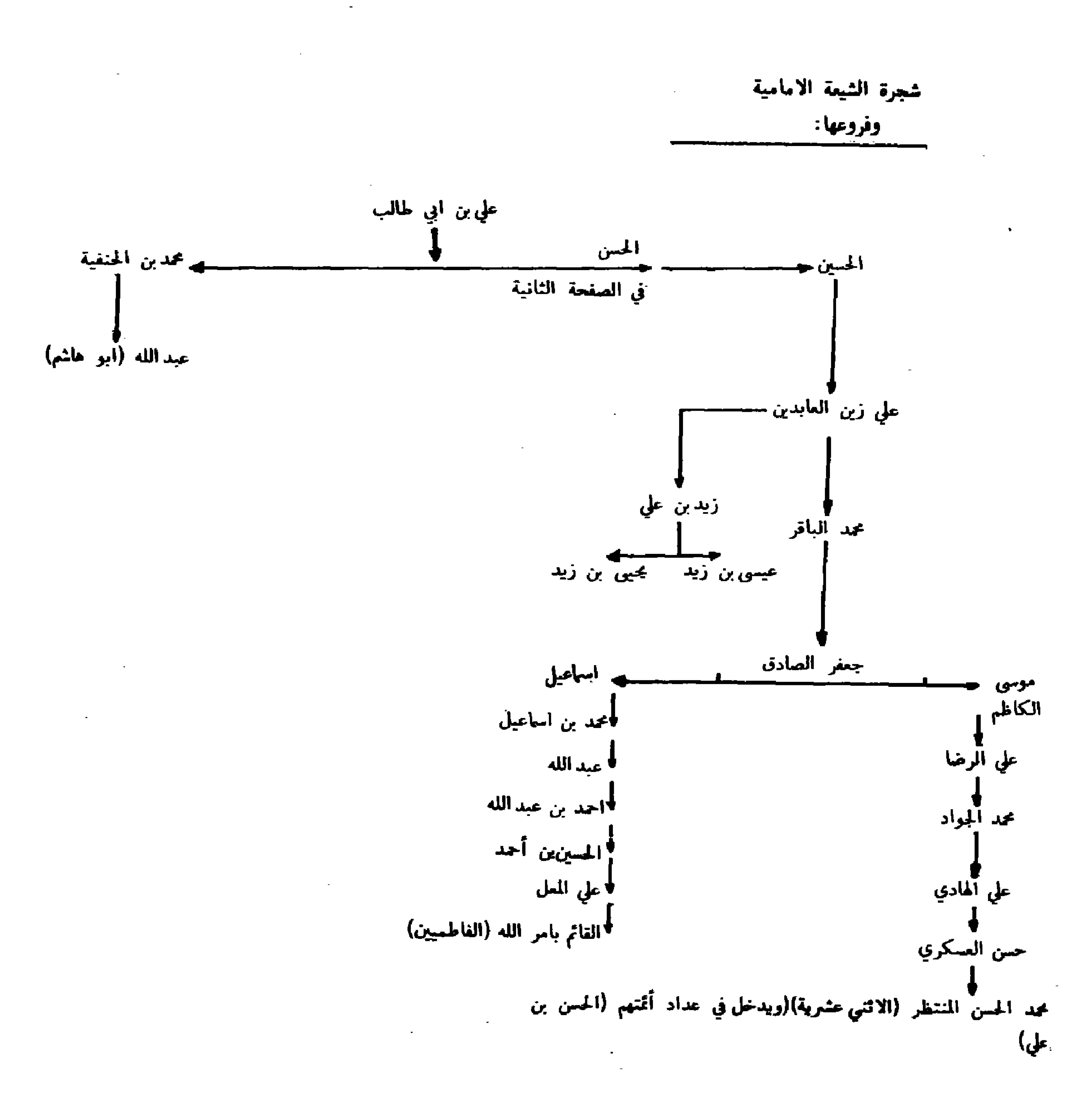
وولد اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي حسناً وابراهيم واعقباه...... وولد جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي الحسن المثلث، فولد الحسن بن جعفر عبد الله، وولد عبد الله عبيد الله ولاّه المأمون الكوفة ثم مكة، وابراهيم بن جعفر وولده عبد الله.

وولد داؤد بن الحسن بن الحسن بن علي سليمان وعبد الله.... كان

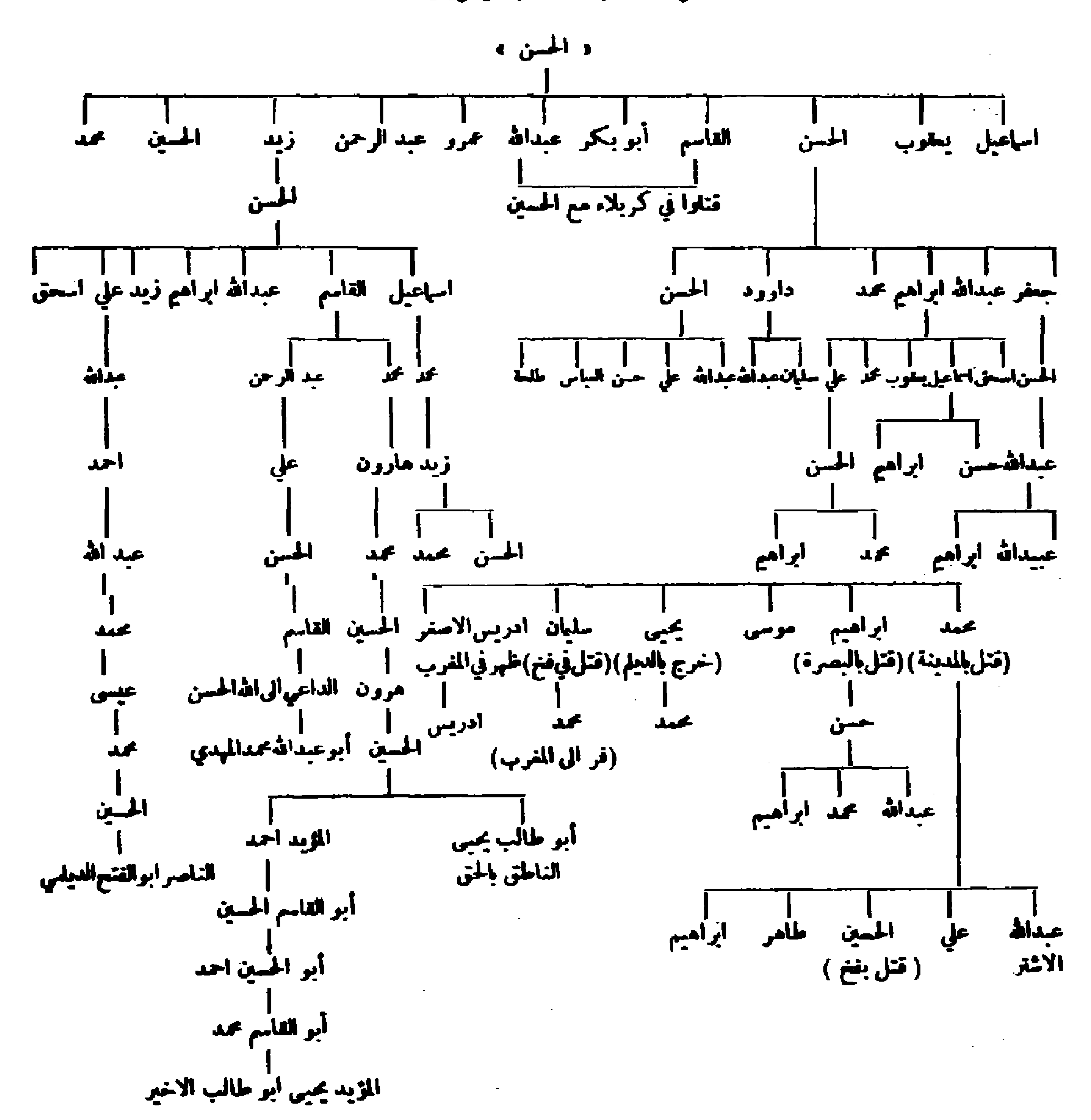
عبد الله من اهل الفضل والورع وقد اعقب كل من سليمان وعبد الله.

وولد زيد بن الحسن بن علي الحسن ولا عقب له الاّ منه وكان فاضلاً برّاً... ولاّه المنصور المدينة فولد له اسماعيل والقاسم وعبد الله وابراهيم وزيداً وعلياً واسحق.... ومنه بيوت كثيرة.

شجرة الشيعة الامامية وفروعها:



الشجرة الامامية للحسنية والزيدية



المصادر العربية:

اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا - المقريزي
استتار الامام - النيسابوري
الفاطميون في مصر - حسن ابراهيم حسن
عبيدالله المهدي - حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي حسن ابراهيم حسن
دولة النزارية - طه احمد شرف
الصليحيون والحركة الفاطمية باليمن - حسين همذاني
المعز لدين الله - حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف
نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين - عطية مصطفى مشرفة
تاريخ العرب - فيليب حتي
تقويم البلدان - ابو الفداء اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه
كنوز الفاطميين - زكي محمد حسن
تاريخ الاسلام السياسي - حسن ابراهيم حسن
تاريخ جوهر الصقلي - علي ابراهيم حسن
الحاكم بامر الله - محمد عبدالله عنان
في ادب مصر الفاطمية - محمد كامل حسين
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق - محمد جمال سرور
مصر في عهد الدولة الفاطمية - محمد جمال سرور
افتتاح الدعوة - النعمان بن حيون

المجالس والمسايرات - النعمان بن حيون
الهمة في اداب اتباع الائمة - محمد كامل حسين
عيون الاخبار - ادريس عماد الدين
المجالس المؤيدية - المؤيد في الدين داعي الدعاة
مجموعة الوثائق الفاطمية - جمال الدين الشيّال
نظم الفاطميين ورسولهم في مصر - عبد المنعم ماجد
الحاكم بامر الله المفترى عليه - عبد المنعم ماجد
الامام المستنصر بالله الفاطمي - عبد المنعم ماجد
سيرة جعفر الحاجب - د. ايڤانوف
سيرة الاستاذ جوذر - محمد كامل حسين ومحمد بن الهادي شعيرة
عبقرية الفاطميين - محمد الأعظمي
الناصر لدين الله - سيمون حايك
اصل الذمة في العصر الفاطمي - جمال الدين الشيّال
اخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم - ڤوندر
معجم البلدان - ياقوت الحموي
تاريخ الرسل والملوك - الطبري
كتاب البلدان - اليعقوبي

المصادر الاجنبية:

The rise of the Fatimids–W. Ivanow
A guide to the Ismaili Literature–W. Ivanow
A forgotten Branch of the Ismailis–W. Ivanow
The origins of Ismailism–B. Lewis
History of the Shia Imamiya of India–Hollister
Polemics of the Origin of the Fatimid Caliph–Prince Mamour
A Short history of the Fatimid Califate–Sadighi
The order of Hashshashin–Hodgson
Esquisse d'une bibliographie Carmathe–Massignon
The Quaddahid legend–Hamdani
Fatimid–Decrees–Stern
Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse–Defremery
Enquête aux pays du levant–Barrés

فهرست المحتويات



Dr. ᶜĀRIF TĀMIR

AL - QĀ'IM WA AL - MANṢŪR AL - FĀṬIMIYYĀN AMAM THAWRAT AL - KHAWĀRIJ

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT-LEBANON



AL - QĀ'IM WA AL - MANṢŪR
AL - FĀṬIMIYYĀN
AMAM THAWRAT AL - KHAWĀRIJ



AL - QĀ'IM WA AL - MANṢŪR AL - FĀṬIMIYYĀN

AMAM THAWRAT AL - KHAWĀRIJ

by

Dr. ᶜĀRIF TĀMIR

الثمن: ١٥ ل.ل.

Dar al-Afaq al-Jadida BEIRUT-LEBANON